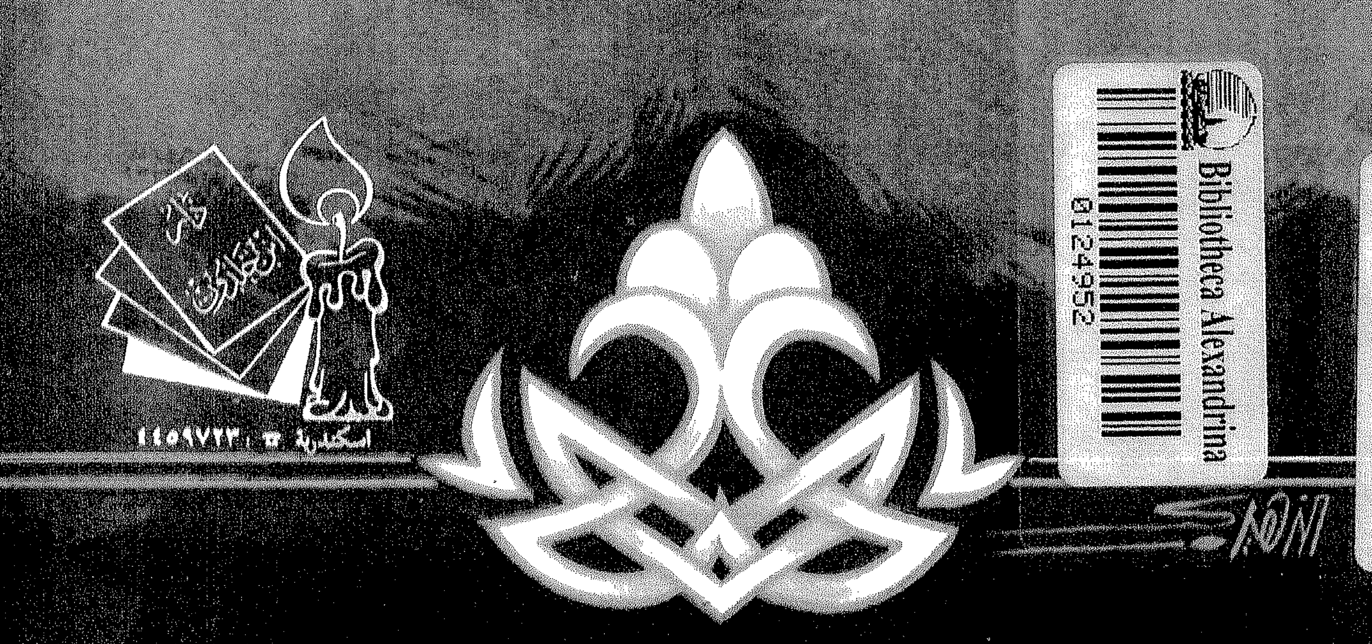
درة الأولياء فى براءة الأنبياء

تأليف الشيخ
عبد الحميد يوسف منصور









درة الأولياء

في براءة الأنبياء

تأليف الشيخ

عبد الحميد يوسف منصور





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة كتاب درة الأولياء في براءة الأنبياء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمدك اللهم حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شئ بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

اللهم صلى على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين، لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، وأسألك الفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم لا تدع لى ذنباً إلا غفرته، ولا حاجة هى لك رضاً، إلا قضيتها ويسرتها بفضلك يا أرحم الراحمين، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد ..

فيا أخى القارئ الكريم: لاشك وأن الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق واصطفاء الحق، أعدهم الله وأصطفاهم من خيرة خلقه ليبلغوا عنه منهجه إلى أقوامهم فى الأرض، فهم أولو الحق وأئمته وأعلامه، وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكون للحق أعداء، طالما يتربصون به الدوائر حقداً وحسداً وبغضاً، فكان لا بد وأن يكون لهؤلاء الأنبياء والرسل أعداء، مع أنهم طهرهم الله من أسماهم خَلقاً وخُلقاً، ولكن مهما كان الباطل قوياً ومهما كانت أسلحته بتارة ومهما كان صوته عالياً فإنه لابد له من الخذلان والخزى والهزيمة وأما الحق فإنه وإن بدا صوته خافتاً وإن كان جنوده ضعفاء وإن كانت أسلحته غير متكافئة إلا

أنه لا بد وأن يظهر وينتصر ويعلو خفاقاً يملأ نوره الأجواء ولعل سائلاً يقول: ما هى الحكمة من أن الله عز وجل جعل للحق أعداء والجواب والله أعلم من أمرين:

أولهما: أن الله عز وجل قدر ذلك لكى يستمسك أهل الحق به ويجتهدوا ويجدوا فى الجهاد عنه.

الأمر الثانى: أن الأنبياء والرسل ومن ورائهم الدعاة إلى الله عز وجل لا بد وأن يكون لهم أعداء لأن أهل الباطل يرون فى الحق غبناً لهم وضياعاً لكيانهم وكما قيل من أحبه كل الناس ومن أبغضه كل الناس فهو كافر.

وأما المؤمن فلا بد وأن يكون له أحباب وأعداء بل إن الله عز وجل وهو خالق كل شئ تقوّل عليه أهل الباطل ونسبوا له الشركاء والولد.

أخى القارئ: من أجل ذلك فإنه يسرنى أن أصحبك فى رحلة متواضعة مباركة حول جوانب من حياة بعض الأنبياء والرسل نعيش معهم مع حياتهم المباركة نستخلص بعض الدروس النافعة ونحاول محاولة متواضعة فى الكشف عن الحقيقة فكان هذا الكتاب المتواضع «درة الأولياء فى تنزيه الأنبياء».

أسأل الله عز وجل أن يجعل تلك المحاولة موفقة ويتجاوز عن تقصيرى الذى لا بد منه ويشفع لى أنى أحاول جاهداً وأنا لست أهلاً لذلك كما أرجو أن ينفعك الله بما قدمت من كلمات وأن تسأل الله لى ولك السلامة وحسن الخاتمة وأن نجتمع سوياً وكل مؤمن بأنبياء الله ورسله ونحشر مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ترجمة المؤلف

موطن ميلاده وتاريخه: ولد الشيخ عبد الحميد يوسف منصور بقرية كفر بالمشط محافظة المنوفية فى عشرة ديسمبر عام ألف وتسعمائة وثلاثون من الميلاد.

تعليمه: حفظ القرآن الكريم وأتم حفظه وهو فى العاشرة من عمره وحصل على إجازة القراءات السبع وهو فى الخامسة عشرة من عمره.

كما حصل على شهادة تخصص القراءات من معهد القراءات بدمنهور عام ١٩٧٤.

التحاقه بالدعوة: والتحق بالعمل بالمساجد فى وزارة الأوقاف عام ١٩٦٦، وعين شيخ مقرأة عام ١٩٧٠ ولا يزال يعمل فى الخطابة بمساجد الأوقاف.

مؤلفاته: ألف كتاب فتح المريد فى علم التجويد وهو من جزئين كما ألف كتاب نيل الخيرات فى أصول وعلم القراءات العشر من طريق الحرز وهو فى طريقه إن شاء الله إلى إصدار الجزء الثانى ويبحث فى باب فرش الحروف مع الإشارة إلى الأصول.

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

فيسرني أخى القارئ أن أقدم لك كتاب «درة الأولياء في تنزيه الأنبياء» للشيخ عبد الحميد يوسف منصور ويقع فى ثلاثة وعشرين فصلاً حاول المؤلف محاولة جادة فى الكشف عن أمور نحن محتاجون إليها لأنها تتعلق بالقضايا الإيمانية فى حياة الأنبياء والرسل فتحدث فى الأصول الأولى عن كيف أن الله كرم بنى آدم وأصطفى منهم من يبلغهم عنه منهج السماء كما تحدث المؤلف عن ما يجب فى حق الأنبياء وما يستحيل عليهم إجمالاً وتفصيلاً وما يجوز فى حقهم وطوف المؤلف بنا فى حياة إبراهيم الخليل وأسرته عليهم السلام وعاش معنا فى جانب من السيرة العطرة فى حياة النبى الخاتم مولده ورضاعه ونشأته وعمله وزواجه بخديجة رضى الله عنها وبدء الوحى ومراحل الدعوة الإسلامية ثم ذكر المؤلف ثلاثة من الأنبياء والرسل وهم داود وسليمان ويوسف عليهم السلام.

جزاه الله عنا خير الجزاء ونفعنا بما قدم ويقدم من علم نافع للمسلمين.

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد.

فإن الله تبارك وتعالى كرم بنى آدم وفضلهم على كثير من خلقه وأنعم عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى حيث يقول فى محكم التنزيل وهو أصدق القائلين ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[1].

ويقول عز وجل: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾[2].

ويقول تباركت أسماؤه وعظمت آلاؤه وكثرت نعماؤه وعطاؤه ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾[3]، ومن تكريم الله تعالى وتفضيله لبنى آدم وإنعامه عليهم أن أختار واصطفى منهم من يوحي إليهم ويبلغوا رسالاته إلى أهل الأرض حتى يبلغوا منهج الله إلى عباد الله حيث يقول سبحانه فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾[4].

وهؤلاء الصفوة هم أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من لدن آدم إلى خير خلق الله وأكرم الخلق على الله وأشرف الخلق عند الله، خاتم النبيين وإمام المرسلين وقائد الغر المحجلين صاحب اللواء المعقود والمقام

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم: ٧٠.

(٢) سورة إبراهيم الآية رقم: ٣٤.

(٣) سورة النحل الآية رقم: ١٨.

(٤) سورة الحج الآية رقم: ٧٥.

المحمود والحوض المورود والشفاعة العظمى فى اليوم الموعـود والشاهد والمشهود سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

تعريف كل من النبى والرسول

النبى :– هو إنسان ذكر حر من بنى آدم كلفه الله بإحياء شريعة من قبله من الرسل ولم يؤيد بكتاب ولا معجزة.

الرسول :– هو إنسان ذكر حر من بنى آدم كلفه الله بشريعة وأمره بتبليغها للناس.

وبالجملة فإن الرسول هو المؤيد بالشريعة والمعجزة وأما النبى فليس له شريعة عامة أى ليس له كتاب وبالتالى فليست له معجزات وقد كلفنا الله عز وجل وأمرنا بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل حيث يقول تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾[1]. ويقول عز وجل: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾[2].

أما عدد الأنبياء والرسل فعلمه عند الله يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[3].

والقرآن الكريم ذكر لنا من هؤلاء الصفوة المختارة خمسة وعشرين نبياً ورسولاً. ثمانية عشر منهم ذُكِروا فى قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه .....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين﴾[4].

وأما الأنبياء والرسل السبعة الباقون فقد ذكروا فى هذا البيت.

إدريسٌ هودٌ شعيبٌ صالحٌ ذو الكفل آدم بالمختار قد خُتموا

---

(١) سورة البقرة الآية رقم: ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران الآية رقم: ٨٤.

(٣) سورة غافر الآية رقم: ٧٨.

(٤) سورة الأنعام الآيات من ٨٣ – ٨٦.

الفصل الأول

ما يجب فى حق الرسل وما يجوز وما يستحيل عليهم

قبل أن نوضح هذه الأمور الثلاثة كان لزاماً علينا أن نبين الأحكام العقلية فالأحكام العقلية ثلاثة، وهي:

١ – الواجب العقلى.

٢ – المستحيل العقلى.

٣ – الجائز العقلي.

فأما الواجب العقلي:– فهو الشيء الثابت عقلاً الذى لا يقبل الانتفاء أصلاً لذاته كتقدم الأب على الابن فى الوجود وتأخر الابن على الأب وظهور القمر ليلاً والشمس نهاراً.

وأما المستحيل العقلي:– فهو ضد الواجب وهو الشيء المنفى والذى لا يقبل الثبوت أصلاً لذاته كتقدم الابن على الأب وتأخر الأب على الابن وظهور الشمس ليلاً والقمر نهاراً فإذا كان الله تبارك وتعالى على كل شئ قديراً ولاشك فى ذلك فإنه خلق الكون على نظام بديع يتناسب مع حاجة البشر وما يعود عليهم بالنفع العام فى دينهم ودنياهم ولذلك انتفى وجود الشمس ليلاً والقمر نهاراً.

وأما الجائز العقلي:– فهو الشيء الذى يقبل الثبوت تارة والانتفاء تارة أخرى كتغير أحوال الإنسان من الصحة إلى المرض ومن الفقر إلى الغنى وتغير أحوال الجو، ونحو ذلك من الأمور التى لا تثبت على إيجاد أو نفى وهذا الجائز العقلى هو الذى يكون للقدرة الإلهية دخل فيه فالقدرة متعلقة بالأمور الممكنة أي الجائزة عقلاً لثبوتها أو نفيها لأن القدرة لو تعلقت بالواجب لتوجده لكان ذلك تحصيل حاصل ولو تعلقت به لتعدمه لكان ذلك قلباً للحقائق وأيضاً لو

تعلقت بالمستحيل لتنفيه وتعدمه لكان ذلك تحصيل حاصل ولو تعلقت به لإيجاده لكان ذلك قلباً للحقائق وكل من تحصيل الحاصل وقلب الحقائق محال.

إذن فالقدرة الإلهية تتعلق بالممكنات لإيجادها وإعدامها، إذا علمت ذلك فاعلم أن الواجب والمستحيل بالنسبة للرسل قسمان: إجمالى وتفصيلى.

فيجب فى حق الرسل إجمالاً كل كمال بشرى ويستحيل عليهم كل نقص بشرى خَلقاً كان أو خُلقاً.

فهم موصوفون بالطهارة والأمانة والعفة والصدق وكل صفة محمودة وخلق كريم.

وقد مدح الله نبينا محمداً صلوات الله وسلامه عليه وهو خاتم الأنبياء مدحه كتاب الكريم فقال تعالى ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1].

كما طهر الله انساب الأنبياء والرسل من الدنس والسفاح فهم أطهار أخيار أبرار، أيضا لم يوحِ الله إلى نبى ذى عاهة حتى لا ينفر منه الخلق وحتى لا يكون محتاجاً إلى أحد يعينه على شئون الحياة فلابد وأن يكون أعلى فى البشرية من قومه حتى يحتاجوا إليه ولا يحتاج إليهم، هذا هو الواجب والمستحيل الإجمالى.

أما الواجب التفصيلى فى حق الرسل: فلا بد وأن يجتمع فى النبى والرسول أربع صفات وهي: التصديق والأمانة والتبليغ والفطانة وبالتالى فإن الصفات المنافية لتلك الصفات الأربع فإنها مستحيلة عليهم أجمعين، فيستحيل عليهم التكذيب أو الكذب والخيانة والكتمان والبلادة وتلك الأمور مبسوطة فى كتب التوحيد.

ومن هنا نعلم أن الله تبارك وتعالى أعد الأنبياء والرسل إعداداً لما خلقهم له ولما كلفهم به أعود فأذكر بقول الله تعالى ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ [2].

---

(١) سورة القلم أية رقم: ٤

(٢) سورة الحج الآية رقم: ٧٥.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾(١).

﴿واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾(٢).

﴿واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾(٣).

﴿وأذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً۝ ورفعناه مكانا عليا﴾(٤).

وقد روى فى قصة إسلام سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قال وخرجت أتبع محمداً وقد سبقنى إلى المسجد فتبعته فرأيته يصلى ويقرأ سورة الحاقة فعجبت وقلت: إنه شاعر كما قالت عنه قريش فسمعته يقرأ ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾(٥)، فقلت إنه كاهن فسمعته يقرأ ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون﴾(٦)، إلى قوله تعالى ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾(٧).

وإذا كان الله تبارك وتعالى أعد الأنبياء والرسل إعدادا إلهياً عظيماً كريماً فإن نبينا محمداً صلوات الله وسلامه عليه وهو خاتم الأنبياء والرسل وخير خلق الله أجمعين قد تميز على إخوانه وآبائه من الأنبياء والرسل بأن الله عز وجل أعد له وأعده بأن هيئ له الأسباب وأعد له الكون قبل إيجاده مما يجعلنا نرجع بالتاريخ إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الخليل أبو الأنبياء صلوات الله

---

(١) سورة مريم أية رقم: ٤١.
(٢) سورة مريم الآية رقم: ٥١.
(٣) سورة مريم الآية رقم: ٥٤.
(٤) سورة مريم الآيتين: ٥٦،٥٧.
(٥) سورة الحاقة الآيتين: ٤٠،٤١.
(٦) سورة الحاقة الآية رقم: ٤٢.
(٧) سورة الحاقة الآية رقم: ٤٧.

وسلامه عليهم أجمعين حيث أن هذا النبى الكريم ليس عربيّ الأصل وإنما هو من العراق فكيف بهذا النبى الخليل الكريم يكون الجد الأول بل الأب الأول لسيدنا محمد النبى العربى الهاشمى وهذا هو الإعجاز الإلهى نبى من بنى إسرائيل يكون جداً لنبى عربى خاتم لذلك كان لابد من الإعداد الذى لا يمكن أن يكون إلا من إله عظيم قوى قادر مع تأمل الزمن البعيد لآلاف السنين بين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وبين خاتم الأنبياء النبى العربى العدنانى.

الفصل الثاني

طرف من حياة إبراهيم الخليل وأسرته عليهم السلام

يذكرنا التاريخ أن إبراهيم عليه السلام لم يرزق من زوجته سارة بالبنين حتى بلغ من العمر ستاً وثمانين سنة فلما هاجر إلى مصر ومعه زوجته سارة وكان بمصر ملك جبار مولع بحب النساء كان إذا رأى امرأة أعجبته وكانت متزوجة أغتصبها من زوجها وأخذها لنفسه فلما حضر نبى الله إبراهيم إلى مصر وعلم الملك بوجوده هو وزوجته وسأله عن هذه المرأة فقال إبراهيم إنها أختى وهو لم يكذب كما جاء فى السنة «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات قوله لقومه إنى سقيم وقوله عندما سئل عن تكسير الأصنام بل فعله كبيرهم هذا وقوله للملك عن سارة إنها أختي» والحق أن إبراهيم عليه السلام لم يكذب حيث قد علمنا أن الكذب محال على الأنبياء فهو صادق حينما قال لقومه إنى سقيم فهو سقيم أى متعب صدراً ونفساً ومتألم مما عليه قومه من الكفر والشرك با لله وأما قوله بل فعله كبيرهم هذا فتلك سخرية منه لقومه يريد أن يفيقهم ويردهم إلى صوابهم، ويذكرهم كيف أن هذه الآلهة المزعومة لم تستطع أن تدافع أو تدفع عن نفسها وبالتالى فلا تستحق العبادة وأما قوله لملك مصر عن زوجته سارة إنها أختى فهو صادق أيضاً فهى أخته فى العقيدة حيث لا يوجد على الأرض من يدين لله إلا هو وزوجته ولكن هذه المقولات من إبراهيم اعتبرت كذبات من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين وهكذا قال إبراهيم لزوجته لا تكذبيني عند هذا الملك فإن سألك قولى أنا أخته فأنت أختى فى الإسلام.

ولما دخلت سارة على الملك أراد أن يفعل بها السوء توضأت وصلت ركعتين ودعت ربها قائلة اللهم إن كنت تعلم أنى لا أسجد إلا لك وأنى أحصنت فرجى إلا عن زوجى فاحفظنى من هذا الجبار وإذا بالملك تسوخ

قوائمه وتشل يده فلا يستطيع أن يصل إليها ويتوسل إليها قائلاً: سلي ربك أن يخلصني مما أنا فيه ولا أمسك بسوء، فتدعو سارة ربها فيرجع إلى صحته ثم يحاول أن يخون العهد لكنه يصاب مرة ثانية وهكذا مرتين أو ثلاث فدعا برجاله وقال لهم: أخرجوها عني وأعطوها جارية، فكانت هاجر وهكذا تستخلص من هجرة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين إلى مصر أن الهجرة سمة الأنبياء والرسل وديدنهم وعلى رأسهم وإمامهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه حيث هاجر من مكة إلى المدينة.

وقد هاجر نوح وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ونستخلص أيضا من موقف سارة من الملك والتجائها إلى ربها أن المؤمن لا ييأس ولا يقنط من رحمة ربه مهما تزاحمت عليه الشدائد. ومهما بلغ به ونال منه الضر. فإنه يلجأ إلى ربه، يقول تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء في الأرض أءله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾[1].

فإذا تضرع المؤمن إلى ربه ودعاه فى خشوع وإيمان فإنه سبحانه وتعالى سوف يكشف عنه البلاء ويرفع عنه الضر.

وهاهو إبراهيم عليه السلام يرجع إلى الشام ومعه زوجته سارة بعد أن أنجاها الله من الملك الجبار الطاغية وأهداها هاجر المصرية.

وهاهى سارة تقول لزوجها وتعرض عليه أن تهبه هذه الجارية فلعلها تنجب الولد فيكون لهما ولد حيث لم يرزقا بالبنين ويقبل إبراهيم هاجر ويدخل بها وتحمل بإسماعيل عليه السلام لكنها لما حملت وظهر حملها حاولت أن تخفى هذا الحمل حتى لا تؤذى سارة فى مشاعرها فاتخذت منطقا وربطته على وسطها ورفعت ذيل ثيابها وهكذا كان خلق هاجر الخلق الكريم لم تحاول أن

---

(١) سورة النمل الآية رقم: ٦٢.

تترفع على سارة حينما حملت وأنجبت الولد لإبراهيم وهكذا تعلم هاجر النساء من خلفها بل وتعلم كل مؤمن أنه إذا رزق بالنعمة فإنه يشكر الله عليها ولا ي
حاول أن يؤذى غيره إذا كان قد حرم هذه النعمة ووضعت هاجر إسماعيل عليه السلام لكن سارة لم تطق هاجر ولا ولدها ودبت الغيرة فى قلبها وملأت كيانها وهذا هو دأب المرأة. يذكر المؤرخون إنها أقسمت أن تقطع ثلاثة أعضاء من هاجر فلما أخبرت زوجها بذلك قال لها: اثقبى أذنيها واخفضيها فتكونين قد بررت بقسمك وفعلت واتخذت هاجر قرطا فى أذنيها حتى تخفى أثر الثقب فكانت هاجر هي أول من اتخذت المنطق وأول من ثقبت أذناها وأول من اتخذت القرط من النساء.

إلا أن سارة قالت لإبراهيم: لا يسعنى هذا البيت أنا وهذه الجارية ولا يضمنا سقف واحد فإما أن تخرجها من هذا البيت أو أخرج أنا . فماذا فعل إبراهيم عليه السلام؟

هل تخلى عن سارة التى رافقته فى حياته وخرجت معه إلى مصر مهاجرة وقاسمته حياته؟ كلا ليس هذا خلقه وهو النبى الجليل الذى سيكون أبا الأنبياء.

هل يتخلى عن هاجر الصغيرة التى ليس لها أهل بالشام وهى أم ولده الذى رزقه الله به على كبر؟ ماذا يفعل؟ وإذا بعناية السماء تتدخل وتحل هذه المشكلة الإنسانية البحتة، فيوحى الله إلى إبراهيم أن يهاجر بهاجر وصغيرها إلى مكة لكن لم مكة بالذات؟ وكيف لإبراهيم الشيخ الكبير أن يقطع هذه المسافة وهى شهر بالإبل غدواً وشهر رواحاً.

أما لم مكة؟ فلأن الله عز وجل كان يعد لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه فينشأ إسماعيل عليه السلام بها وفوق أرضها ويستظل بسمائها ويستنشق هوائها ويستدفئ بحرارة شمسها ويستظل بظلها ويشرب من مائها ويتعلم لغة العرب حتى يكون مستعرباً ويكون جداً للنبى العربى الهاشمى...

أما كيف قطع إبراهيم عليه السلام الشيخ الكبير تلك المسافة بين الشام ومكة وبزوجته هاجر الصغيرة وولديهما الرضيع وتلك المسافة تحتاج إلى قوة فذلك أمر يعلمه الله وحده، وإن كان العلماء ذكروا أنه ركب البراق الذى أسرى عليه النبى الكريم، وقيل أيضا أن الله عز وجل طوى الأرض حتى يبلغ إبراهيم مكة وسواء كان ذلك أو ذاك فإن الله عز وجل الذى أوحى إلى إبراهيم أقدره عليه فهو سبحانه وتعالى رب القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين.

ويصل إبراهيم عليه السلام وزوجه هاجر وولديهما إلى جوار البيت الحرام بمكة ويترك إبراهيم زوجته وولده وليس مع هاجر إلا سقاء فيه ماء وجراب فيه تمر ويتحول إبراهيم عليه السلام راجعا دون أن ينظر إلى زوجته أو إلى ولده حتى لا تأخذه الشفقة عليهما خصوصاً وأن مكة آن ذاك لم يكن بها زرع ولا ماء ولا طير ولا إنس، وتنادي هاجر زوجها: قائلةً إلى من تتركنا يا إبراهيم؟ لكنه لا يجيبها ولا يحاول أن ينظر إليها وتكرر هاجر النداء وإذا بها تستلهم الحقيقة وتعلم أن نبى الله إبراهيم لا يفعل ذلك إلا بوحى من ربه فتدرك تلك الحقيقة وتسأله مستوثقة من إدراكها قائلة: ءالله أمرك بهذا؟ فيجيبها دون أن يلتفت: نعم. فتقول هاجر فى إيمان صادق ويقين كامل وثقة لا تتزعزع: إذن لا يضيعنا. إنها كلمة إن دلت على شئ فإنها تدل على الإيمان والثقة والاعتزاز بالله رب العالمين أجل لقد كانت جارية عند ملك جبار ظالم فأعزها الله بالحرية وزادها اعزازاً برفقتها لأبى الأنبياء وزادها تكريماً بأن منح هذا النبى الكريم منها ولداً سوف يكون جداً لخير خلق الله.

كل هذه الوقائع والأحداث وما رأت من نصر الله تعالى لسارة على هذا الرجل الجبار جعلها تقول هذه الكلمة: «إذن لا يضيعنا» والتى سيكون لها أثر كبير وخطر عظيم فقد توكلت واعتمدت على ربها حيث من أعتمد على عقله ضل ومن اعتمد على ماله قل ومن اعتمد على جاهه ذل ومن أعتمد على ربه لا قل ولا ضل ولا ذل لكن هل ينتهى الأمر بهاجر عند هذا الحد، كلا. ولكن

الله عز وجل يزيدها امتحاناً حتى تزداد ثقة بقولها وكلمتها فكلما كان التشريف فإنه يزيد التكليف وينفذ الماء من سقائها ويتلوى رضيعها من شدة العطش ويشرف على الموت وهاهي تبتعد عنه حتى لا ترى موته ونهايته أمام عينيها لكنها مع كل ذلك وهي في وحدتها ووحشتها وضعفها من أجل وليدها لم تقطع الأمل والرجاء فهي القائلة إذن لا يضيعنا فتسعى مهرولة منهكة متعبة بين الصفا والمروة وهما جبلان بمكة سبعة أشواط لعلها تجد شيئا يحفظ على وليدها الحياة وإذا بها كأنها تسمع شيئا فتسمعت وقالت أسمع إن كان عندك غياث أي عند الله عز وجل ولم تقل إن كان عند الله بل قالت إن كان عندك غياث لأنها تعلم أنه لا يعلم حقيقة أمرها ولا ينجيها وينجي ولدها إلا الله وإذا بالغياث وإذا بالإمداد.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وإذا بجبريل ينزل من السماء بأمر ربه ويضرب الأرض بجناحه أو بعقب الوليد إسماعيل فكانت زمزم.

وكيف لا يكون الغياث وكيف لا يكون الإمداد من الذات العليا وقد قالت هاجر رضي الله عنها إذن لا يضيعنا؟ وكذلك إن إبراهيم عليه السلام عندما ييمم وجهه راجعاً من مكة بعد أن ترك زوجته المرأة الضعيفة ووليده الرضيع الصغير دعا ربه قائلا عند الثنية: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[1].

أجل إنه دعاء من نبي كريم خليل يقول: ﴿ربنا﴾ ولم يقل ربي لأنه أراد نفسه وأهل بيته ويقول: ﴿أسكنت من ذريتي﴾ ولم يقل ذريتي وكأن الله ألهمه بإسحاق الذي سيولد من سارة بعد ثلاث عشرة عاما أو تكاد وقوله ﴿بواد غير

(١) سورة إبراهيم الآية رقم: ٣٧.

ذى زرع﴾ يعنى مكة وذكر الزرع فى الدعاء لأنه به يتغذى الإنسان والحيوان وبه استبقاء الحياة وقوله عند بيتك المحرم فيه لطيفتان:

الأولي: أنه يعلن أنه لا خوف على أهله وذريته ماداموا فى جوار الله عز وجل حتى وإن خلا المكان من ضروريات الحياة وهما الغذاء والماء.

الثانية: ذكره البيت ووصفه بالمحرم مع أن البيت كان قد طمر فى عهد نوح عند الطوفان وتلك إشارة إلى وجود البيت الحرام قبل إبراهيم عليه السلام لأن الله عز وجل يقول: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾[1]. والناس من لدن آدم عليه السلام وأن إختلف فى أول من بنى البيت.

هل هو آدم عليه السلام أم بنته الملائكة قبله؟ والله أعلم وسوف نذكر طرفاً من ذلك عند ذكر رفع قواعد البيت: ثم يقول نبى الله إبراهيم فى دعائه ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾، وتلك إشارة ولطيفة عظيمة حيث يشير إلى أن الإنسان ما خلق إلا للخلافة فى الأرض والعبادة الحقة لله تبارك وتعالى.

كما أشار القرآن الكريم إلى هذين الأمرين حيث يقول سبحانه: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[2] ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾[3].

ويقول على لسان نبيه صالح عليه السلام: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾[4].

وذكر نبى الله إبراهيم الصلاة وخصها بالذكر لأنها صلة بين العبد وربه ثم ختم إبراهيم دعائه بقوله ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾، وهذا هو

---

(١) سورة البقرة الأية رقم: ١٢٥.

(٢) سورة البقرة الأية رقم: ٣٠.

(٣) سورة الذاريات الآية رقم: ٥٦.

(٤) سورة هود الآية رقم: ٦١.

جانب الأمن أن تكون مكة عامرة بالناس لأن الإنسان كما يقولون مدنى بطبعه يقول ابن عباس: الحمد الله أن قال إبراهيم: ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ ولم يقل «أفئدة الناس» ولولا ذلك لتزاحم على البيت اليهود والنصارى والمجوس ثم ذكر إبراهيم الجانب الثانى من ما يحتاج إليه البشر وهو الغذاء ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ وأن كان لم يذكر الماء وهو قبل الغذاء لأن الثمرات لا تنبت إلا بسقيها بالماء ثم قال: ﴿لعلهم يشكرون﴾.

يبين أن واجب الإنسان أن يشكر الله على نعمه.

وعودة إلى هاجر وزمزم وقبل أن نتكلم عن زمزم نقول إن السعى بين الصفا والمروة والذى أول من قامت به هاجر شرعه الله وجعله شعيرة من شعائر الحج والعمرة فلا يتمان إلا به حيث يقول جل وعلا: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾[1].

أما زمزم فقد تفجرت بأمر الله تعالى ومشيئته. لم تتفجر بتخطيط بشرى ولا إعداد هندسى وإنما تفجرت بقدرة الذى أمره بين الكاف والنون إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

وماء زمزم لم يكن لسقيا هاجر وولدها فحسب. بل كان سببا فى أن تعمر مكة ويألفها الناس والطير بعد أن كانت موحشة خالية من البشر والماء والطير. وليس هذا فحسب. وإنما جعل الله ماء زمزم بركة. فماؤها لما شرب له. شفاء سقم، وطعام طعم كما جاء فى السنة «ماء زمزم لما شرب له».

وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا شرب من زمزم كان يقول: اللهم إنى أسألك علماً نافعاً وقلباً خاشعاً ورزقاً واسعاً.

---

(١) سورة البقرة الآية رقم: ١٥٨.

وبعد أن تفجرت زمزم واطمأنت هاجر على نفسها وولدها حيث أفاض الماء طمأنها جبريل على ولدها فقال لها: لا تخافى على ولدك فإن هذا المكان فيه بيت لله يبنيه هذا الغلام وأبوه. يا لها من كلمة عظيمة جليلة. أن جبريل عليه السلام يطمئن هاجر على ولدها بل ويبشرها بأن هذا الوليد سيكون له شرف المشاركة فى رفع قواعد البيت الحرام.

وتمر قبيلة جرهم فترى طيرا قد ألف المكان أى مكة. وكانوا لا يرون فيها طيرا. فأرسلوا رسولا منهم يتفقد أحوال مكة وماذا جرى حتى يألف الطير هذا البلد الذى كان موحشاً غريباً فيأتيهم رسولهم ويخبرهم بماء زمزم وأمر هاجر. فعرضوا عليها أن يقيموا معها فى مكة فقبلت على شرط أن يكون الماء لها. وبهذا عمرت مكة بالبشر والحياة وعاشت هاجر ووليدها آمنين مستقرين وكان إبراهيم عليه السلام يأتى إلى مكة بين الحين والآخر ليتفقد أحوال زوجه وولده.

وشب إسماعيل وكبر حتى صار شابا وتزوج امرأة من جرهم. وجاء إبراهيم كعادته يتفقد أحوال ولده. وكان إسماعيل غير موجود فى البيت. فدخل إبراهيم على زوجته وسلم، وسأل عن ولده وهي لا تعرف أن هذا هو أبو إسماعيل، فقالت: خرج إسماعيل يبتغي لنا رزقا. فسألها عن أحوالهما فقالت له، نحن بشر حال فقال لها، إذا جاء إسماعيل فاقرئيه السلام وقولى له: غير عتبة بابك فلما جاء إسماعيل وكأنه ألف شيئاً وشم رائحة طيبة. سأل زوجته هل حضر إلينا أحد؟ قالت نعم جاء شيخٌ كبير وسأل عنك فقلت له كذا وكذا وهو يقرؤك السلام ويقول لك غير عتبة بابك. فقال لها ذاك أبى وأنت العتبة وقد أمرنى أن أطلقك فالحقى بأهلك. أجل لأنها لا تصلح أن تكون زوجة لأن الزوجة يجب عليها أن تعاون زوجها وأن تكون معه لا عليه فإسماعيل طلق زوجته لا لرأى أبيه ولا طاعة لأمره فقط، وإنما طلقها لأنها لا تصلح أن تكون رفيقة له فى الحياة ما دامت تشكو حالها ولا تستر أمرها ولا أمر بيته.

ثم تزوج إسماعيل امرأة أخرى وجاء إبراهيم عليه السلام وسألها عن إسماعيل قالت لقد خرج يبتغي لنا رزقاً فقال كيف حالكما؟ قالت والله نحن بخير حال فقال لها: وما طعامكما؟ وما شرابكما؟ قالت اللحم والماء. فقال ودعا لهما وقال لها: اللهم بارك لهما فى اللحم والماء، وقال لها إذا جاء إسماعيل فأقرئيه السلام وقولى له ثبت عتبة بابك فلما جاء إسماعيل فكأنه آنس شيئا مثل المرة الأولى وسألها هل جاءنا أحد فأخبرته عما حدث بينها وبين إبراهيم عليه السلام وهى لا تعرفه وما أوصاها به. قال لها ذاك أبى وأنت العتبة وقد أمرنى أن أمسكك.

ثم جاء إبراهيم عليه السلام بعد ذلك وقد أمره الله أن يرفع قواعد البيت كما ذكر ذلك فى القرآن الكريم حيث يقول سبحانه: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم۞ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا. إنك أنت التواب الرحيم۞ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[١].

جاء إبراهيم إلى ولده وهو جالس بجوار البيت يعد النبل لأنه كان يهوى الصيد كما كان يهوى ركوب الخيل فلما رأى أباه قام إليه وفعل كل منهما بالآخر كما يفعل الولد بأبيه والأب بولده. ثم قال له يا إسماعيل إن الله أمرنى أن أرفع قواعد البيت الحرام.. أتعيننى على ذلك؟. نعم يا أبت.. وهذه الإجابة وهذه الطاعة لم تكن هي المرة الأولى ولم تكن أمراً جديداً على إسماعيل، وإنما سبق أن أطاعه في ما هو أشد وأعظم وأعجب من ذلك حينما شب وكبر وصار فتىً يستعان به على شئون الحياة وأمر الله أباه أن يذبحه كما ذكر ذلك فى كتاب الله حيث يقول الله سبحانه على لسان إبراهيم ﴿رب هب لى من

---

(١) سورة البقرة الآيات من ١٢٧ – ١٢٩.

الصالحين۞ فبشرناه بغلام حليم۞ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين۞ فلما أسلما وتله للجبين۞ وناديناه أن يا إبراهيم۞ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين۞ إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾[1].

والقصة بإيجاز أن إبراهيم رأى فى منامه ليلة الثامن من ذى الحجة أنه يذبح ولده فلما أصبح تروى فى الأمر لا لأنه يتباطأ أو يكره أن ينفذ ما رأى ولكنه أراد أن يستوثق مما رأى فسمى يوم التروية لأن هذا الأمر كان له خطورته من ثلاثة وجوه:—

الوجه الأول: أنه رزق بهذا الغلام بعد أن بلغ من الكبر عتيا، فكيف يؤمر بذبحه وقد وهبه الله له.

الوجه الثاني: أن هذا الغلام هو إبنه الوحيد.

الوجه الثالث: أنه أمر بأن يتولى ذبحه بنفسه.

فلما كانت ليلة العاشر من ذى الحجة رأى الرؤية هي هى فأستوثق فأصبح فعرف.. أن هذا أمر من الله تعالى فلذلك سمي يوم التاسع يوم عرفة وإن كان له معانى أخرى لم نذكرها فى هذا المقام.

فهم إبراهيم عليه السلام بتنفيذ أمر ربه وقال لغلامه وولده ووحيده أن يأخذ الحبل والمدية ويسبقه إلى منى.. فعرض له الشيطان وقال له يا إسماعيل أتدرى ما يفعل بك أبوك إنه ينوي أن يذبحك زاعما أن الله أمره بذلك فاستعاذ إسماعيل من الشيطان وقال له إخسأ يا عدو الله لئن كان أبى فاعلا بى ما تقول فإن أبى نبى وما يفعل ذلك إلا بوحى.. أجل ألم يقل الله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام

---

(١) سورة الصافات الأية رقم ١٠٠-١٠٧.

حليم﴾ ووصفه بالحلم، بلى وإن الحلم هو التوفيق إلى الحق وترك السرعة والخروج عن الصواب.

فلما آيس إبليس من إسماعيل جاء إلى أمه وقال لها أدركى ولدك الوحيد فإن أباه بعثه بالحبل والمدية ليذبحه فقالت هاجر مستعيذة با لله منه إخسأ يا عدو ا لله فإن إبراهيم نبى ولن يفعل إلا ما يأمره به ربه. أجل قالت هاجر ذلك لأنها واثقة مما تقول ألم يقل لها جبريل عند تفجر زمزم لا تخافى على ولدك وأن هذا المكان فيه بيت لله ينيه هذا الغلام وأبوه.

ثم لما يأس إبليس من هاجر وولدها عرض للشيخ الكبير النبى الخليل ثلاث مرات وفى كل مرة يقول له لا تفعل فإنه لا يمكن أن يأمر ا لله بالذبح ذبح الإنسان وهذا ولدك فكان إبراهيم عليه السلام يرميه بالحصيات عند كل مرة ومن هنا كان رمى الجمار شريعة وواجباً من واجبات الحج فى أيام التشريق الثلاثة حيث ترمى جمرة العقبة الكبرى يوم الأضحى وبها يكون التحلل الأصغر الذى يتحلل الحاج به فيباح له ما كان محظوراً عليه أثناء الإحرام، يمس الطيب ويقلم أظافره ويحلق شعره ويلبس ملابسه العادية إلا النساء وهذا معنى التحلل الأصغر يعنى أن الرجل لا يتصل بزوجته الاتصال المعروف ألا بعد أن يطوف طواف الإفاضة وأما رمى الجمار الثلاثة فإنها تكون فى اليوم الثانى والثالث من أيام التشريق. وأنه إذا كان الحاج قبل حجراً ورمى حجراً فإنه يمتثل لأمر ربه.

وعود إلى إبراهيم وإسماعيل حينما ذكر إبراهيم لولده ما أمر به والقرآن يعبر بقوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ القرآن يجلى الموقف ويبين أن إسماعيل صار أو أصبح فى سن يستطيع أن يعين أباه فلما بلغ معه السعى قال أبوه له ﴿يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا تري﴾ ولنتأمل هذه الكلمات اللطيفة، كلمات صادرة من نبي خليل قال ﴿يا بنى﴾ ولم يقل يا إسماعيل ولم يقل يا ولدى ولم يقل يا ابنى. بل قال يا بنى بأسلوب التصغير أى يا حبيبى بعد ا لله ووحيدى وثمرة فؤادى وفلذة كبدى لكن مع كل ذلك فإن طاعة ا لله

واجبة وهى فوق كل حب. وحينما قال له. ﴿فانظر ماذا ترى﴾، لم يكن على سبيل الشورى وإنما كان على سبيل كيفية التنفيذ أى فانظر كيف تنفذ أمر الله تعالى؟

فماذا كان الجواب من الغلام الحليم؟ ما كان منه ألا أن قدر موقف أبيه وأجابه بأسلوب الحب والعاطفة يا أبت بتاء المبالغة. ﴿أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾.

نعم إنه غلام حليم أعان أباه على تنفيذ وطاعة أمر ربه وقدم المشيئة على الصبر وهاهو يقول يا أبت كبني على وجهى حتى لا تراه فتأخذك الشفقة وأشدد وثاقى حتى لا أنفلت منك وحدّ شفرتك حتى تسرع بذبحى وشمر ثيابك حتى لا يصيبك دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن وهاهو الشيخ الكبير يكب الغلام الصغير على وجهه وهاهو ينحنى ويمر بالسكين على رقبته فلم تقطع.

موقف صعب ما أصعبه الوالد يحاول والولد تحته صابر والملائكة تضج بالدعاء يا ربنا يا إلهنا أرحم شيخا كبيرا وغلاما صغيرا فكان الإمداد من السماء. الإمداد الذى كان لإبراهيم حينما ألقى فى النار. الإمداد الذى كان لهاجر وإسماعيل بتفجر زمزم وعمارة مكة هذا هو الإمداد والغيث فينزل جبريل بالفداء كما صور ذلك القران الكريم وهذا معنى قوله تعالى ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾[1]، وفى بجسده للنيران ووفى بطعامه للضيفان ووفى بولده للرحمن.

ولما أطاع إبراهيم ربه بتقديم ولده قرباناً ولما وفى ولده لله وبر بأبيه كانت المكافأة الكبرى فأمر الله إبراهيم برفع قواعد البيت وكان إسماعيل معينا له أيضاً فكان إبراهيم يرفع القواعد وإسماعيل يناوله الحجارة وجبريل يعلمه كيفية البناء.

وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يدعوان ربهما قائلين ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم۝ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة

---

(١) سورة النجم الآية رقم: ٣٧.

مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[1]، ودعا إبراهيم ربه قائلا: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[2]. وهذا ما يبينه نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول فى بعض حديث شريف: «أنا دعوة أبى إبراهيم».

وهذا هو أحد الحقوق التى علينا لأبينا إبراهيم عليه السلام. فقد دعا بأن يبعث فينا رسولاً منا وكذلك ليلة الإسراء والمعراج حينما التقى به النبى الكريم فى السماء السادسة حيث وجده وهو مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. قال له: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح ثم قال: أقرأ أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة تربة طيبة وغراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فتلك حقوق ثلاثة: دعاؤه لنا ببعثة نبينا محمد ﷺ وسلامه الذى أرسله لنا مع النبى الكريم وغراس الجنة.

فكان من حقه أن نصلى عليه فى كل صلاة «اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين. إنك حميد مجيد».

وبعد أن فرغ إبراهيم عليه السلام من رفع قواعد البيت شرفه الله وكرمه وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج كما جاء فى القران الكريم قوله تعالي: ﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[3].

وإذا كان الحجيج يأتون بيت الله مجيبين أمره وطاعته فإن الله عز وجل يقول لإبراهيم: ﴿يأتوك رجالا وعلى كل ضامر﴾ لأنه هو الذى رفع قواعد البيت بأمر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة البقرة الآيتين: ١٢٧، ١٢٨.

(٢) سورة البقرة الآية رقم: ١٢٨.

(٣) سورة الحج الآية رقم: ٢٧.

وعند ذلك يقول إبراهيم: «يا رب وأنى يبلغ صوتى» يعنى كيف أؤذن فى الناس كل الناس وكيف يسمعون فيجيبه الحق سبحانه «إنما عليك النداء وعلينا البلاغ».

فيصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس وهو يقول: يا أيها الناس إن الله اتخذ لنفسه بيتاً ألا فحجوه ليدخلكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار. يقول ذلك وهو يتجه بوجهه شمالاً وجنوبا وشرقا وغربا.

وقيل أن الله تبارك وتعالى أمر الجبال فانخفضت وأمر الأرض فارتفعت حتى سمع من كتب لهم الحج وهم فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة.

وهذا هو معنى التلبية حيث يقولون بعد الإحرام: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». فلا تلبية إلا بدعوة.

ويحج الحاج ويعتمر بقدر ما سمع نداء إبراهيم. فمن سمع مرة لبى مرة. ومن سمع مرتين لبى مرتين. ومن سمع مرات لبى مرات. والله نسأل ألا يحرمنا من سماع هذا النداء العظيم، وتلبيه تلك الدعوة الكريمة إنه القادر على ذلك والموفق له. اللهم آمين.

ونزل إبراهيم عليه السلام وأسرته الكريمة بسلام.

الفصل الثالث

مع عبد المطلب وحفر زمزم

ونلتقى بعبد المطلب بن هاشم جد المصطفى عليه الصلاة والسلام. وكيف بدأت علاقته بزمزم التى كانت قد طمرت وأخفيت معالمها بعد أن أجلت قريش قبيلة جرهم من مكة.

وكان عبد المطلب مسئولا عن سقيا الحجيج وكان الماء لا يكفيهم فاهتم عبد المطلب بذلك هماً بالغاً. وإذا به يرى فى منامه ويسمع هاتفا يقول له: يا عبد المطلب! احفر طيبة، أي أنها ذات ماء طيب، ويسأل عبد المطلب ما طيبة؟ فلا يجاب، ويستيقظ من نومه، ثم يسمع هاتفاً في ليلة أخرى يقول له: احفر المضنونة. أى التى يضن ماؤها عن الكفار والمشركين. فيستيقظ دون أن يعرف مكان زمزم.

ثم يسمع الهاتف ليلة أخرى يقول له احفر برة أى التى ذات ماء بر فيه شفاء لكنه لا يعلم معنى ما سمع فيسمع بعد ذلك الهاتف يقول له احفر زمزم التى لا تنفد ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم بين الفرث والدم أى بين الصفا والمروة عند نقرة الغراب الأعصم أى الغراب الذى له علامة مميزة.

ويمشي عبد المطلب حتى يقف عند نقرة هذا الغراب فيعلم أن هذا هو المكان الذى به الماء. ولم يكن لعبد المطلب سوى ولد واحد هو الحارث وكان عبد المطلب شيخا كبيرا فلما هم بحفر زمزم وكان ابنه الحارث يعينه ويساعده قامت قريش لتمنع عبد المطلب مما هو مقبل ومقدم عليه، فرأى رجالاً كثيرة، وأبناؤهم من حولهم، فشق عليه ذلك، ولكنه صمم على فعله، وعلى ما هو مقدم عليه، وحفر زمزم وظهر الماء . ولما رأت قريش ماء زمزم أقبلت إلى عبد المطلب، وقالت له: نحن نشاركك فى هذا الماء فقال لهم: علينا أن نذهب إلى من نحتكم إليه فى ذلك وبينما هم سائرون نفد الماء الذى كان معهم وانتظروا الموت

وإذا بالماء يتفجر من تحت قدمي عبد المطلب عند ذلك قالوا له: لقد حكمت لك السماء فأنت صاحب الماء.

الفصل الرابع

نجاة عبد الله بن عبد المطلب
من الذبح وزواجه بآمنة

وكان عبد المطلب قد نذر حينما تكاثر عليه رجال قريش وأبناؤهم، نذر لئن رزق عشرة من البنين ليذبحن منهم واحدا قرباناً للآلهة. وشاء الله تبارك وتعالى أن يرزق عبد المطلب عشرة من البنين وكان أصغرهم وأنضرهم وأجملهم عبد الله فلما كبر وشب، وصار فتى، وكان أجمل شباب قريش، وكان عمره ثمانية عشر عاماً هم عبد المطلب ليوفى بنذره.

وأخذ أبناؤهم العشرة وذهب بهم إلى ضارب الأقداح ليجرى القرعة على بنيه وأيهم يكون الذبيح وضربت الأقداح وأجريت القرعة فخرجت على عبد الله ثلاث مرات واستوثق عبد المطلب من أن الذبيح هو عبد الله، فلما أخذه وذهب به إلى مكان الذبح قامت قريش إلى عبد المطلب، ووقفوا فى طريقه دون أن ينفذ ما هو عازم عليه. وقالوا له: إن أنت فعلت ذلك فإن هذا الفعل وهذا العمل سيكون سنة من بعدك فإياك أن تنفذ هذا الأمر.

فقال عبد المطلب: وماذا أفعل؟ فأشاروا عليه أن يحتكم إلى كاهنة من خثعم. وذهب عبد المطلب ومعه بعض من رجال قريش إلى هذه الكاهنة وسألوها فى هذا الأمر. فأشارت عليهم أن يقدموا عبد الله ويقدموا عشرة من الإبل ويقترعوا. فإن خرجت القرعة على الإبل ذبحوها بعد أن سألتهم، كم الدية فيكم؟ فأخبروها أن الدية هى عشرة من الإبل. قالت: إن خرجت القرعة على الإبل فاذبحوها. وإن خرجت على صاحبكم فزيدوها عشراً. وزيدوا حتى تخرج القرعة على الإبل.

وعادوا فرحين مستبشرين لأنهم وجدوا مخرجا وبابا يخرجهم من هذا المأزق. وأيضا فإنهم لا يريدون لعبد الله أن يذبح. وقدموا الإبل وقدموا عبد الله

واقترعوا فكانت القرعة تخرج فى كل مرة على عبد الله وظلوا يزيدون ويزيدون حتى بلغت الأبل مائة وخرجت القرعة على الأبل، لكن عبد المطلب أراد أن يستوثق من ذلك. فاقترعوا ثلاث مرات. وفى كل مرة تخرج القرعة على الإبل عند ذلك إطمأن عبد المطلب وعلم أن ابنه عبد الله قد افتدى من الذبح.

وذبحت الإبل المائة وترك لحمها لايمنع منه إنسان ولا حيوان ولا طير.

وعاد عبد المطلب بولده فرحاً مسروراً. وفرحت مكة كلها بنجاة عبد الله.

الفصل الخامس

زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب

لم يرجع عبد المطلب بولده إلى بيته بل إلى بيت وهب ليخطب لعبد الله آمنة وتمت الخطبة وتم زفاف عبد الله وآمنة فى فرح ملأ أجواء مكة كلها.

وظل عبد الله فى بيت آمنة ثلاثة أيام كما كانت عادة العرب. لكن قبل أن نرتحل مع عبد الله وآمنة إلى بيتهما نرجع إلى الوقت الذى نجا فيه عبد الله من الذبح. وبينما هو عائد مع أبيه لقيته امراة وسألته عن الدية والفداء. ولما علمت أنه مائة من الإبل قالت له: أعطيك مثلها على أن تخلى بينى وبينك. لكنه أبى وقال لها: «أنا مع أبى ولا يمكن أن أقع فى الحرام». وبعد أن أعد عبد الله بيته الذى سينقل فيه آمنة وذهب إلى بيتها كى تصحبه إلى بيتها الجديد لقى تلك المرأة التى كانت قد حدثته عن نفسها وطلبت منه أن يواقعها لكنه رآها لم تعبأ به فسألها: لِمَ لَمْ تهتمى بى اهتمامك بالأمس؟ قالت: لقد رأيت فى وجهك نوراً وأردت أن أحظى به فلما دخلت بآمنة انتقل النور منك إلى رحمها. فلا حاجة لى بك.

وكأن هذه المرأة قد علمت أن زمان النبى الخاتم المنتظر قد قرب لأنها كانت كاهنة فلما لم تجد النور فى وجه عبد الله زهدت فيه. وتم حمل آمنة بخير خلق الله أجمعين صلوات الله وسلامه عليه. وكان ذلك فى شهر رجب.

الفصل السادس

حمل آمنة بالنبي ﷺ وموت عبد الله

وترك عبد الله زوجته وارتحل إلى الشام للتجارة. لكنه مرض أثناء عودته. ومكث عند أخواله من بني النجار بيثرب ووافته المنية ومات قبل أن يرجع إلى مكة تاركاً زوجته الصغيرة وهى حامل بولده اليتيم الذى شاء الله له أن يكون يتيما حتى تتولاه عناية السماء وتركت وفاة عبد الله حزناً شديداً فى قلب آمنة العروس الصغيرة التى تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ولا تزيد على ذلك. كما حزن عبد المطلب حزنا شديدا على موت ولده الصغير بل وحزنت مكة كلها كما تركت وفاته سؤالا وعلامة تعجب. تساءل أهل مكة إذا كان الموت مقدراً على عبد الله فى هذه السن الصغيرة فلم أمهله حتى نجا من الذبح وتزوج آمنة وحملت منه؟

ولم يجدوا فى أنفسهم جواباً على هذا التساؤل وعلى هذه الحيرة. لكن الذى أجابهم على هذا التساؤل وعلى هذه الحيرة القدر. فكيف علمت آمنة أنها تمر بالحمل؟ إنها لم تجد فى حملها بمحمد ﷺ ألماً ولا وحماً كما تجد النساء بل ظنت أن حيضتها غابت عنها وستعود ولم تشعر إلا وأنها ترى فى منامها نوراً خرج منها أضاء لها قصور بصرى بالشام.

ولنا هنا وقفتان: الوقفة الأولى فى رؤيتها النور الذى خرج منها ولم يخرج من سقف البيت أومن إحدى نوافذه بل خرج منها هى، وتلك إشارة إلى أن حملها لم يكن حملا بإنسان عادى وأنما هو نور. نور يضئ الدنيا كلها بأرجائها ثم ترى هذا النور يضئ لها قصور بصرى بالشام .

وتلك هى الوقفة الثانية: إن بين آمنة وهى فى مكة وبين الشام مسيرة شهر غدواً وشهر رواحاً بوسيلة الإبل فكيف لها ترى قصور بصرى وهى فى بيتها؟ ولماذا قصور الشام بالذات؟

تلك إشارة أخرى إلى أن هذا الوليد يقدر له أن يسرى به إلى الشام وفى شهر رجب الذى تم حمل أمه فيه يسرى بهذا الوليد إلى الشام فى رجب وإلى بيت المقدس ليصلى فيه. وفى الشهر ذاته بعد ثلاث وخمسين سنة.

وأيضا تسمع من يقول: أبشرى يا آمنة فقد حملت بسيد العالمين. وأيضا جده عبد المطلب يرى قبل ميلاده وهو نائم بجوار الكعبة كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها أربعة أطراف. طرف فى المشرق وطرف في المغرب وطرف في السماء وطرف في الأرض، ثم تحولت هذه السلسلة إلى شجرة أغصانها من النور ملء المشرق والمغرب، وتعلق بأعضائها أهل المشرق والمغرب. فلما قص تلك الرؤيا على أهل التأويل قالوا له أبشر يا عبد المطلب فسوف يخرج من صلبك من يتبعه أهل المشرق والمغرب. وتلك الأمور يطلق عليها علماء التوحيد الإرهاصات التى تسبق مولد الرسول وإرساله بوحى الله له ولكي يتعلق أنظار وعقول الناس إلى هذا الإنسان وأنه سيكون نبيا ورسولا.

الفصل السابع

فى قصة أصحاب الفيل

وسبق ميلاده أيضا من الإرهاصات القصة المشهورة والحدث العظيم الذى أرخ ميلاده به إنها قصة وحدث أصحاب الفيل. وهذه القصة بإيجاز هى أن ملكاً باليمن وأسمه ذو نواس وكان جباراً ظالماً زعم أنه إله فتمرد عليه أهل اليمن وذلك أنه كان له ساحر يستعين به فى الشعوذة فلما كبر هذا الساحر طلب من الملك أن يأمر له بغلام صغير ليعلمه السحر ويكون خلفاً له وجئ بغلام للساحر فمر الغلام بكنيسة وسمع من فيها يتعبدون فدخل هذه الكنيسة ليستمع ويرى من أهلها فتخلف عن الساحر وتكررت هذه الفعلة مرات ومرات فكان أهله يضربونه لأنه كان يمر على هذه الكنيسة فى غدوه ورواحه فقال أحد القساوسة بالكنيسة إذا سألك أهلك عن تخلفك فقل أخرنى الساحر، وإذا سألك الساحر عن تأخرك فقل له أخرنى أهلى.. وبهذا تنصر هذا الغلام وترك دين أباءه، وكان للملك وزير أعمى فدخل عليه هذا الغلام وقال له إن دعوت الله وشفيت ورد الله إليك بصرك هل تترك دين الملك وتؤمن بالله؟ فقال الوزير: ومن هو هذا الإله؟ قال الغلام: إنه الذى خلقنى وخلقك وخلق كل شئ وهو الذى يحى ويميت وهو الذى يرزق ويشفى فقال الوزير: نعم إن شفيت آمنت بهذا الإله فمسح الغلام على وجه الوزير ودعا الله له فرد الله بصره بأمر الله تبارك وتعالى وإذا بهذا الوزير يدخل على الملك من غير قائد يقوده ولا عصا يمسكها وكان الغلام قد طلب من الوزير ان لا يذيع أمره عند الملك، كما أن الرهب الذى علّم الغلام النصرانية قد طلب منه ذلك أيضاً خوفاً من بطش الملك وظلمه، ولما سأل الملك وزيره هل شفيت برضائى؟ قال: لا بل شفانى ربى قال الملك: وهل لك رب غيرى، قال: نعم ربى وربك ورب كل شئ هو الله فغضب الملك وأمر بتعذيب هذا الوزير حتى أقر على الغلام فأمر الملك بقتل

الوزير، وأتى بالغلام وأمر بتعذيبه فما زال يعذب حتى أقر على الراهب فجئ بالراهب وقتل وقال الملك للغلام: أنا لا أقتلك ولكن آمر بقتلك شر قتلة وبعث به مع بعض جنوده وأمرهم أن يصعدوا فوق جبل مرتفع ويلقوا به من فوق الجبل حتى يموت فلما ذهب الجنود بالغلام وصعدوا به قالوا له: إذا كان ربك رباً حقيقياً فلينجيك منا فدعى الغلام ربه وقال: اللهم أنقذنى من هذا الظلم وإذا بالجند يخرون من فوق الجبل موتى وليست هذه هى أول دعوة للغلام فإنه كان قد مر فى طريقة بدابة كانت قد منعت الناس أن يمروا وقطعت عليهم الطريق وكانوا قد فشلوا فى التخلص منها فأتى الغلام بحجر وقال: اللهم إن كان أمر الكاهن أقرب إليك من أمر الساحر فأقتل هذه الدابة ورماها بالحجر فإذا بالحية أو الدابة تقع على الأرض ميتة وهاهو قد دعا من فوق الجبل وتخلص من جند الملك وعاد إليه فعجب الملك وقال من الذى أنجاك قال: أنجانى ربى فبعث به الملك مع جند آخرين وأمرهم أن يركبوا سفينة صغيرة، فى البحر ويغرقوه فكان ما كان من فوق الجبل دعا ربه وأنجاه وأغرق من معه وعاد إلى الملك فعجب الملك عجباً أكثر وقال من الذى أنجاك، قال: أنجانى ربى، ثم قال الغلام: إن أردت أن تقتلنى فأجمع الناس جميعا وارمنى بسهم قائلا: بسم الله رب الغلام وفعل الملك ما قال الغلام ظاناً أنه يتخلص منه وأنه يحافظ على ملكه وجمع الناس وقال الملك: بسم الله رب الغلام ورماه بالسهم فخر صريعاً وكان شهيداً فى سبيل الله فإذا بالناس المجتمعين يؤمنون ويعلنون بقلوبهم قبل السنتهم قائلين آمنا برب الغلام وكأن الملك الجبار الظالم قد رمى بكسف من السماء وكأن الأرض قد تزلزلت من تحت قدميه ولا يكاد يلتقط أنفاسه من هول ما وقع به فلا يسعه إلا أن يأمر أن تحفر الأخاديد أى الحفر وتوقد فيها ناراً مؤججة، ويلقى فيها كل من يؤمن بالله.

والقرآن الكريم يسجل ذلك فى سورة البروج فيقول سبحانه وتعالى ﴿والسماء ذات البروج۞ واليوم الموعود۞ وشاهد ومشهود۞ قتل اصحاب الأخدود﴾[1] إلى أخر الأيات.

وكاد أهل اليمن أن يفنوا جميعا في سبيل الله شهداء مومنين بوعد الله آمنين من ظلم وبطش هذا الظالم فلئن يقتلوا ويستشهدوا فى سبيل الله سعداء بالجنة وجوارا لله بعد أن من الله عليهم بالإيمان وشرح صدورهم للحق خير لهم من أن يعيشوا كفاراً تحت بطش رجل تجبر وتكبر وزعم كذباً ما زعم.

وشاء الله برجل من أهل اليمن وهداه إلى أن يذهب إلى ملك الروم وكان نصرانياً وطلب منه أن ينصر اليمن من هذا الملك الجبار إلا أن ملك الروم أعتذر وقال لهذا الرجل إني أبعثك إلى النجاشي فهو أقرب إليكم مني وذهب هذا الرجل إلى النجاشي ملك الحبشة فبعث معه جيش كبير وعليه أميران أحدهما يسمى إرياط والثانى يسمى أبرهة والتقى جيش الحبشة بجيش ذى نواس وأنتصر الحق على الباطل وهُزِم الملك المزعوم فلما رأى أن جيشه قد هزم وأن ملكه قد ضاع ضرب فرسه فى بطنه فوقع فى البحر وهو فوقه ومات قتيلاً وأصبح اليمن تحت إمرة هذين الأميرين الحبشيين.

لكن كما نعلم أن الدنيا تفتن أصحابها وقع خلاف بين الأميرين وانقسم الجيش فريقين، مع كل أمير فريق، وجعلا يقتتلان إلا أن أحدهما فكر وأقترح على الآخر أن يتبارزا فإذا قتل أحدهما الآخر فاز بالملك وإتفقا على هذا الأمر وتبارزا. وكان إبرهة بديناً قصيراً، فضربه إرياط بالحربة وكان طويل القامة فأستطاع إبرهة أن ينجو من الضربة إلا أن الحربة أصابت شفتيه وأنفه فشجتهما فلذلك أطلق عليه أبرهة الأشرم وأستطاع احد جنود أبرهة أن يضرب إرياط في حلقه فوقع قتيلا وأصبحت اليمن تحت إمرة أبرهة.

---

(١) سورة البروج الآيات من ١ – ٤.

وغضب النجاشي على أبرهة لقتله إرياط وبعث إليه رسالة أقسم فيها أن يجز رأسه ويطأ ملكه بقدمه فأحتال أبرهة على النجاشي وحلق شعيرات من رأسه ووضعها فى رسالة ومعها قبضة من تراب اليمن وقال له: إنك قد أقسمت أن تجز رأسي وتطأ ملكي، فهذه شعيرات من رأسي وقبضة من تراب ملكي، وبهذا يكون قد بر قسمك وسأبنى كنيسة عظيمة أصرف بها العرب عن كعبتهم بمكة.

فأعجب الملك بدهاء أبرهة وحيلته وتصرفه وأقره على ملكه وقام أبرهة ببناء كنيسة عظيمة عالية سميت بالقَلِيس أو القليَّس إشارة إلى إرتفاعها لإن الذى ينظر إليها يرفع رأسه حتى تسقط قلنسوته من فوق رأسه وهى العمامة أو ما شابهها.

فلما علم العرب بنبأ تلك الكنيسة وما بُنيت من أجله غضبوا وغاروا على كعبتهم مما جعل أحدكم يدخل تلك الكنيسة بحجة الزيارة ويحدث فيها ويلوثها بالقاذورات فغضب أبرهة وأقسم أن يهدم الكعبة.

أعد جيشاً كبيراً ومعه فيل كبير إسمه ماموس وهذا الكلمة بالعبرانية معناها محمود ووصل أبرهة وجيشه إلى مشارف مكة وأعدوا مكانا ليستريحوا وبعث أبرهة إلى مكة بعض جنده ليحدثوا ذعراً وقلقاً وينبئوا عما هم قادمون عليه، واستاقوا معهم مائتين من إبل عبد المطلب، فلما علم عبد المطلب بقدوم أبرهة وما ينتويه ذهب إليه وكان عبد المطلب رجلاً مهاباً وشيخاً وقوراً، فلما رأى أبرهة عبد المطلب نزل من فوق سريره وجلس على البساط وأجلسه بجواره وقال لترجمانه قل له: ما حاجتك، قال: حاجتى ان ترد إلى إبلى؟ فقال: أبرهة للترجمان إنى كنت قد أجللتك لما رأيتك فلما كلمتنى زهدت فيك أجئت تطلب الأبل وتترك دينك ودين أبائك؟ تترك البيت الذى جئت لأهدمه؟ فقال عبد المطلب: أجل! أما الأبل فأنا ربها وأما البيت فله رب يحميه فقال أبرهة: إن ربك لن يمنعنى. فقال عبد المطلب: أنت وذاك.

ثم عاد عبد المطلب إلى مكة وأمر أهلها أن يتركوا بيوتهم ويتحصنوا بالجبال لإنه يدرك خطورة الموقف، يدرك انهم لا يستطيعون أن يقفوا فى وجه أبرهة وجيشه فأخذ بالأسباب وأمر أهل مكة أن يخرجوا من بيوتهم ويتحصنوا بالجبال أما هو وبعض الرجال فقد ذهبوا إلى الكعبة وأخذوا يمسكون بحلقها وهم يقولون: لاهم (اللهم) إن العبد يمنع رحله أى ضيفه فامنع رحالك. جاءوا بجيشهم وخيلهم لكى يسبوا عبالك إن كنت تاركهم وكعبتنا فمر بما بدا لك.

وهكذا يعلم عبد المطلب البشرية حقيقة التوكل، وهى الأخذ بالأسباب والتوكل بالقلب. فإذا كان عبد المطلب لم يقف فى وجه أبرهة هو وأهل مكة فإنه أخذ بالأسباب وأمر الناس ان يخرجوا وقاية لهم مما هم غير قادرين عليه والوقاية كما يقولون خير من العلاج وهكذا إذا إنقطعت الأسباب بالعبد يلجأ إلى ربه فاللجوء إلى الله من الأسباب، هذا ليس غريباً.

فلنترك عبد المطلب وأبرهة هنيهة ولنتذكر موقف النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه حينما ذهب الطائف بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها يلتمس النصرة من أهل ثقيف فردوه رداً غير كريم وأغروا به غلمانهم وسفهائهم حتى ضربوه بالحجارة وأذقوا قدميه الشريفتين ماذا فعل؟ وقد إنقطعت به أسباب الأرض جلس ورفع يديه إلى السماء. «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى. ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وجلى عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا با لله» وهكذا يكون التوكل أما الإستسلام فهذا تواكل وأيضا يعلمنا النبى الكريم هذه الحقيقة فى حديثه الشريف «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» إلا أن الطير وأن كان

ليس له عقل يدبر ولا قوة تفعل لكسب رزقه فإنه يسعى ويلهمه الله كيف يحافظ على رزقه مثل النملة التى تخرج من عشها فإذا رأت حبة عادت إلى أخواتها تستعين بهم فى حملها فإذا جاءوا بها قسموها وفلقوها نصفين حتى تظل حبةً ولا تتلف إذا أصابها الماء. والأمثلة على ذلك كثيرة تحقيقاً لقوله تعالى والذى قدر فهدى.

وعودٌ إلى ابرهة وجيشه وهاهو ينتقل بجيشه إلى داخل مكة ويأمر فيربط الفيل فى سلسلة ويربط طرف السلسة الأخر فى جدار الكعبة وإذا برجل من العرب يأتى إلى الفيل ويهمس فى أذنه قائلا: إبرك محمود فإن هذا بيت الله.

سبحان الله كيف ألهم هذا الرجل الأعرابي البسيط أن يهمس في أذن الفيل؟ وكيف لهذا الفيل الحيوان أن يتفهم ماسمع؟ إن الله عز وجل هو الذى الهم عبده أن يفعل ما فعل وهو سبحانه الذى أقدر الفيل على فهم ماسمع فكانت هذه أول آيات النصر وكيف لاينصر الله بيته وهو أول بيت وضع للناس وهو البيت الذى يرفع قواعده نبى الله إبراهيم وهو البيت الذى سيتم إكماله بعد خمس وثلاثين سنة على يد خاتم الأنبياء أيضاً الذي أرهص لميلاده بل وهو البيت الذى سيكون محجة ومثابة للناس وأمنا يحجون إليه ويعتمرون به والناس هم أمة هذا النبى الخاتم بل وهو البيت الذى كان قبلة إبراهيم ويكون قبلة هذه الأمة المحمدية يتجهون إليه كل يوم فى صلواتهم خمس مرات على الأقل.

ماذا كان بعد ذلك؟ حاول جيش أبرهة ان يوجهوا الفيل جهة الكعبة فلم يتوجه. فإذا وجهوه إلى المشرق توجه، إلى المغرب توجه، إلى الخلف توجه، إلى الكعبة لم يتحرك حتى أنهم وضعوا المحجن فى حلقومه وهو سيخ من الحديد لكنه أبداً لم يتحرك. وأرسل الله طيوراً كالخفافيش كل طائر معه ثلاثة أحجار، جحر فى منقاره، وحجران فى رجليه وتسقط هذه الأحجار كل حجر على رأس جندى فيخرج من دبره فيهوي قتيلاً حتى فني الجيش بأسره.

وهنا سؤال: لِمَ لَمْ تنزل عليهم الصواعق أو يقع بهم زلزال أو ريح شديدة؟ إن الله تبارك وتعالى أرسل هذه الطيور إستهزاءً بأبرهة وجيشه، وأيضا حتى لا يحدث فى مكة ولا فى الكعبة شئ ضار فإن الغاية هى إهلاك هؤلاء الجند وقائدهم.

وأهلك الجند جميعا، أما أبرهة فإنه عاد إلى اليمن وجسده يتساقط حتى وصل إلى اليمن وهو كالفرخ الذى يشرف على الموت وبهذا يكون أبرهة قد هلك هو وجنده وانتصر الحق على الباطل. وحفظ الله بيته وحفظ أهل مكة إكراماً للبيت الحرام وأنزل الله سورتين كاملتين، وهما سورتا الفيل وقريش حيث يقول الله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾[1]. ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم فى خوف﴾[2]. كان هذا الحدث الجليل قبيل ميلاد سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حتى وأن ميلاده الشريف أرخ بالحدث وسمى هذا العام عام الفيل لأن العرب كانوا آنذاك يؤرخون بالأحداث العظام وهكذا نرى أن الله تبارك وتعالى أعد لسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه فى الإرهاصات والأمور الخارقة للعادة قبل وجوده.

فقد حفظ الله إسماعيل عليه السلام وهو صغير بماء زمزم. وحفظه من الذبح وهو غلام صغير. وإسماعيل عليه السلام هو الجد الأول للنبى الخاتم ﷺ وشاء الله أن ينشأ فى مكة حتى يكون عربياً.

كما حفظ الله عبد الله والد النبى الكريم ﷺ من الذبح وقد رأت آمنة رؤيا حملها حيث خرج منها النور الذى أضاء لها قصور بصرى بالشام كما رأى

---

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة قريش.

عبد المطلب فى منامه السلسلة التى خرجت من ظهره كما حفظ الله عز وجل مكة والبيت الحرام من جيش أبرهة.

وبعد فقد أعد الله نبيه الخاتم واختاره وجعله خير خلقه فكان الميلاد العظيم.

الفصل الثامن

فى نسبه الشريف ومولده عليه السلام

وقبل أن نعيش مع نور المولد النبوى الشريف لا بد أن نذكر نسبه الشريف صلوات الله وسلامه عليه حيث ذكر كتاب السيرة النبوية الشريفة عن نسبه الشريف من جهة أبيه قالوا: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بني هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاّب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نزار بن مضر بن معد بن عدنان ويمتد نسبه بعد ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأما نسبه من جهة أمه فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة. ومعنى ذلك أن نسبه من جهة أبيه ومن جهة أمه يلتقيان فى كلاب بن مرة وهو الجد الخامس من جهة أبيه والرابع من جهة أمه.

وقد طهر نسبه الشريف من سفاح الجاهلية وظل النور المبارك يتناقل من أصلاب الأباء الأطهار إلى أرحام الأمهات الكريمات العفيفات حتى انتقل النور من صلب أبيه عبد الله إلى رحم آمنة. وفى ذلك يروى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفانى من بن هاشم».

وفى رواية عنه ﷺ، إنه قال: خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، وهو الذى ما ينطق عن الهوى فكونه عليه السلام يعلن براءته وبراءة أجداده رجالاً ونساءً من سفاح الجاهلية فإنه لايعلن ذلك إلا بوحى من الله عز وجل فأى إنسان مهما كان شريفاً ومهما كان ذا جاه أو سلطان لا يستطيع أن يبرئ نفسه ويبرئ أجداده من السفاح والدنس، لايمكن أن يكون ذلك إلا من خير خلق الله أجمعين صلوات الله وسلامه عليه.

وكان المولد النبوى الشريف حيث شرفت الأرض بأسعد لحظة ما جاد الزمان ولن يجود بمثلها كانت الأرض ملئت بالفساد والظلم والتخبط والعبث وكان العرب لا يعرفون عقيدة أو كانوا يعرفون لكنهم يشركون حيث يقول تعالى عن علمهم بوجوده سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾(١).

﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾(٢).

ويقول جل ثناؤه ووكثرت آلاؤه: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾(٣).

ويتحدث القرآن الكريم عن شركهم الذميم فيقول:

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون﴾(٤).

كانوا يتخذون الأوثان والأصنام آلهة من دون الله وكانوا يصنعون آلهة من العجوة فإذا جاعوا أكلوها وكانوا يستجمرون بالأحجار التى يعبدونها فياله من سفه وعته كبير وكانوا يأكلون الميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ويشربون الخمور وتلك العادات ضارة بالجسد والعقل فهم يضرون أنفسهم وما يشعرون وكانوا يبيحون لأنفسهم الزنا وتلك عادة إجتماعية خطيرة حيث تضر بالمجتمع أفراداً من حيث الأمراض الفتاكة، وجماعات من حيث إختلاط الماء والأنساب، والأعتداء على الأعراض وكانوا يتعاملون بالربا وهذا مرض إقتصادى خطير وكان الضعيف لا صوت له. لا صوت إلا للأقوياء الأغنياء حتى المرأة كانت

---

(١) سورة العنكبوت الأية رقم: ٦١.
(٢) سورة العنكبوت الأية رقم: ٦٣.
(٣) سورة الزخرف الآية رقم: ٨٧.
(٤) سورة الزمر الآية رقم: ٣.

تُملك وتوضع بين العقارات والأموال الموروثة فإذا مات زوجها كان لولده إما أن يستأثر بها كجارية أو يبيعها في السوق وإن أكرمها تزوجها هكذا كان المجتمع يعيث فساداً، اللهم إلا إذا كانت دولة الروم التي كانت تدين بالنصرانية وكانت إحدى الدولتين العظميين. أما الدولة الثانية التي كانت تحيط بالجزيرة العربية فهي دولة الفرس والتي كان أهلها يعبدون النار.

وبعد فهذه صورة من صور ا: تمع الذى كانت الأرض مظلمة به ومنه وفيه وكأني أنظر إلى الأرض وأسمعها وهي تضج وتستغيث إلى ربها مما كان عليها من فساد ولا عجب ولا غرو أن تستغيث الأرض فهي وإن كانت جامدة إلا انها فيها حياة يعلمها الله ألم يقل الله تعالى عن الكافرين قوم فرعون ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾[1]. ولا يصدر البكاء إلا من حي، فاهنئي يا أرض وأسعدى بل وتيهي وتباهي وتفاخري على السماء، فلئن كانت السماوات مسكن الملائكة وأرواح الأنبياء وفيها البيت المعمور وسدرة المنتهى إلا انها لم تسعد بما سعدت به ولم تشرف بما شرفت به فلقد سعد ثراك بخير نسمة وخير إنسان وخير يتيم وخير مولود. أجل لقد كانت السعادة وكان الخير لإن الشمس الساطعة يسبقها الفجر الخافت والنور الوليد وكذا القمر الساطع يكون قبل تمامه وكماله بدراً وأول الغيث قطر ثم ينهمر وهكذا يكون الخير فكان الميلاد النبوى الشريف، لكن متى كان المولد؟

لم يختلف المؤرخون في أن المولد الشريف كان في عام الفيل وكان في ربيع الأول وكان في يوم الإثنين وذلك أن النبى الكريم كان يداوم على صيام يوم الأثنين ولما سئل عن ذلك قال في إحدى الروايات عنه «ذلك يوم ولدت فيه وبعثت فيه وهاجرت فيه»، لكن ما وقع من خلاف بين المؤرخين إنما كان في تاريخ اليوم ولعل هذا كما يقول بعض المؤرخين إنما كان لإن العرب كانوا

---

(١) سورة الدخان الآية رقم: ٢٩.

لا يعرفون تاريخا ولإنهم كانوا لا يعرفون ولا يدركون خطر وعظمة هذا الوليد فكانت الأنظار غير متجهة إليه فكان مولوداً من بين المواليد ولئن سبقه من الإرهاصات ما سبقه وأشهر الأقوال إنه كان فى فجر يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول من عام الفيل الموافق العشرون من شهر أغسطس عام ٥٧٠ من ميلاد المسيح عيسى عليه السلام فكانت لحظة الميلاد المنيرة الجليلة الطيبة والتى لايستطيع واصف أن يصفها لجلالها وحسنها وعظمتها، لايستطيع واصف أن يصفها مهما أوتى من بلاغة وحصافة ورجاحة عقل إننا نحن البشر إذا رزق احدنا بمولود فإنه يحتفى به على قدر إمكاناته فكيف إذا كان هذا المولود هو مخلص البشرية من الشرك و الوثنية والآخذ بأيديهم إلى طريق النجاة والفوز والفلاح فى الآخرة، بل كيف يكون الإحتفاء بإظهار هذا النور وإن الذى يحتفى به هو الذى أعد له وأعده أنه ربه أنه ا لله رب العالمين.

كانت آمنة فى بيتها ليلة الميلاد ولم يكن معها إلا بركة أم أيمن الحبشية فشعرت آمنة بقرب مولد النور فأرسلت إلى القابلة وهى الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف فحضرت ولنتأمل تلك النسوة الثلاث وأسمائهن آمنة والقابلة الشفاء ومعهما بركة وكان النبى الكريم ﷺ يتفائل بالأسماء الطيبة تقول الشفاء القابلة وهى تصف بيت آمنة فرأيت كأن قناديل معلقة أو نجوماً فى بيت آمنة كادت رأسى أن تصطدم بها .

فهذه النجوم السماوية التى رأتها الشفاء وتحدثت عنها لا يمكن أن توجد في بيت آمنة، ولا يُمكن أن يوجدها إلا ا لله وكأن هذه اول إشارة أو هى الإشارة الرابعة إلى هذا الوليد النورانى رأت أمه نوراً خرج منها ورأى جده سلسلة من فضة خرجت من ظهره وكانت نوراً وجاءت المرأة إلى عبد ا لله والده تطلب وصاله لأنها رأت النور فى وجهه وهاهى الشفاء القابلة ترى نجوم السماء

مدلاة من سقف بيت آمنة، قال تعالى: ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً۝ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾[1].

يقول المؤرخون للسيرة العطرة وجاءت أطيافٌ في صورة هاجر أم إسماعيل وهى الجدة الأولى للوليد الكريم والنبى اليتيم العظيم ﷺ وجاء طيفٌ فى صورة مريم أم عيسى عليه السلام لأنه كان الرسول الأسبق لنبينا الكريم ولأن ميلاده كان آية من آيات الله وطيف آخر لآسية بنت مزاحم إمراة فرعون والتى ضرب الله بها مثلا فى القرآن للمؤمنين حيث يقول سبحانه: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا إمراة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾[2].

والمؤمن العاقل المتفحص لا يستبعد أن يبعث الله هؤلاء النسوة بأرواحهن وأجسادهن لكى تطمئن آمنة فى وحشتها ولكى يشهدن المولد النبوى الشريف وهذا ليس بعيداً ولا غريباً فإن الله الذى جعل نجوم السماء تنير بيت آمنة والله الذى جمع الأنبياء والرسل بعد ثلاثة وخمسين عاماً من هذا الميلاد الكريم ليصلوا خلف النبى العظيم والله الذى أحيا الموتى على يد عيسى بإذنه تعالى والله الذى أعاد الحياة لأبناء أيوب بعد أن ماتوا والله الذى على كل شئ قدير، قادر على أن يبعث هؤلاء النسوة الأطهار لكى يشهدن ويشاهدن تلك الأنوار ومن لم يتسع عقله لإدراك هذه الحقيقة فليختصر على الأطياف. وكان النور، وولد النبى الكريم نزل ورأسه إلى السماء وإصبعه فى الأرض وكأنه يشير بلسان حاله إلى سجوده وإقراره بالوحدانية وإلى ما هو مقبل عليه من حمل تلك الرسالة العظيمة والدعوة إلى الحق، إلى الله المعبود. وكأنه بلسان حاله يقول لا إله إلا الله. وخرحت مكة كلها واستبشرت بهذا المولد العظيم.

---

(١) سورة الأحزاب الآيتين: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة التحريم الآية رقم: ١١.

وكان لأبى لهب موقف نبيل ذكره له التاريخ وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب وهو من أعمام الرسول الكريم ﷺ هذا الموقف يتجلى حينما ذهبت إليه ثويبة وكانت إحدى جواريه تبشره بميلاد محمد فلما بشرته لا يسعه من شدة فرحه بهذا الوليد إلا أن كافأها بالحرية وأعتقها ويروى فى ذلك أن العباس أخاه رأه بعد وفاته بعام وسأله عن حاله فى برزخه فقال: أنا بشر حال وفى عذاب شديد إلا أنه يخفف عنى فى كل يوم إثنين قال العلماء الذين رووا تلك الرواية قالوا يخفف عنه لأنه أعتق جاريته يوم مولد محمد.

ولنترك لحظة الميلاد هذه ونتأمل هذا العم الذى فرح واستبشر وأشرق وجهه لميلاد إبن أخيه تراه بعد البعثة النبوية الشريفة كيف يقف لهذا النبى موقف العداء والجفاء وذلك لإنه كما ذكر المؤرخون أن أبا لهب كان يأمل أن يكون هو النبى المنتظر وكان إبليس يحضر إليه فى صورة أعرابى أو فى صورة كاهن ويشرب معه الخمر ويقول إنك ستكون نبى هذه الأمة ويأتيك الوحى مما جعله يصدق ويتأكد وينتظر هذه اللحظة ولا يُفكر كيف يبعث الله نبياً مخموراً، كيف يبعث الله نبياً يجالس الشياطين والكهان فلما خاب أمله وبُعث النبى الكريم إستفحل العداء وقوى الجفاء حتى أن أحد الصحابة يروى ويقول قبل إسلامه رأيت رجلاً يمشى فى مكة ويقول قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا ومن خلفه رجلٌ آخر يضربه بالحجارة ويقول لا تصدقوه فإنه مجنون فقلت من هذا الرجل الذى ينادى بهذه الكلمة قالوا: هذا محمد بن عبد الله. قلت: ومن هذا الذى يضربه بالحجارة ويرميه بالجنون. قالوا: هذا عمه أبو لهب، كذلك أن أبا لهب لعنه الله فى قرآنه قال لإبنيه عتبة وعتيبة وكانا زوجين لبنتى النبى الكريم ﷺ رقية وأم كلثوم إن لم تطلقا بنتى محمد فرأسى من رأسيكما حرام.

كذلك كان موقف أم قبيح زوجته المكناة بأم جميل وليست كذلك، دخلت يوماً على أبى بكر رضى الله عنه وفى يدها فهرٌ أى حجرٌ كبير وكان الرسول الكريم ﷺ جالساً مع أبى بكر فقالت له: أين صاحبك الذى هجانى

أنا وزوجي؟.. وكان قد نزل فيهما قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[1]. السورة الكريمة قالت: واللات والعزى لو رأيته لضربته وكسرت رأسه بهذا الفهر وخرجت وهى تقول:

فذمنا أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

فعجب أبو بكر وقال: يا رسول الله كيف لم ترك ولم تنظر إليك أم جميل؟ قال: يا أبا بكر أن الله أخذ بصرها عني.. فكانت المعجزة النبوية فى أن أم جميل لم يؤخذ بصرها عن أبى بكر وعن الرسول ﷺ ولكن الإعجاز هو أن ترى أبا بكر ولا ترى النبى الكريم ﷺ.

أخى القارئ أرجو أن تقبل أسفى وإعتذارى على هذه النقلة حيث نقلتك من بهجة المولد والنور إلى هذين اللعينين، الذين لعنهما الله فى كتابه وتوعدهما بالنكال والعذاب الشديد لكن دعانى إلى ذلك الموقفان المضادان فرحٌ وإشراقة وإستبشار عند المولد وعداءٌ وجفاءٌ وقسوة عند البعثة.

وعود أخى القارئ إلى بيت آمنة حيث ولد النور المحمدى وعلم جده عبد المطلب بمولده ففرح به فرحاً شديداً وحمله على يديه وذهب به إلى الكعبة المشرفة فطاف به حول البيت سبعة أشواط. فكان شيئاً جميلاً وعملاً عظيماً وبدءٌ طيباً فى حياة محمد. إذ بدأ حياته الشريفة بزيارة البيت والطواف حوله ويشاء الله عز وجل أن يكمل البيت المبارك على يديه بعد خمس وثلاثين سنة حينما تقوم قريش على تجديده. كما يشاء الله عز وجل أن يطهر البيت من الأصنام والأوثان بعد ثلاث وستين سنة أو تكاد على يديه الشريفتين أيضاً.

وبعد أن طاف به جده سماه محمداً. ولما سئل لم سميته محمداً؟ -وكان هذا الإسم غير مألوف فى مكة. بل وفى العرب قاطبة- قال: سميته محمداً راجياً أن يكون محموداً فى السماء والأرض وختنه يوم السابع. وعق له وذبح وأقيمت الولائم. وأكل الناس وشربوا فرحين مستبشرين.

---

(١) سورة المسد الآية رقم: ١.

الفصل التاسع

فى قضية رضاعه عليه السلام

وكان العرب فى مكة من عادتهم أن يسترضعوا أولادهم فى البادية. وذلك لأن جو مكة حار ومزدحم بالسكان. فكانوا يحبون أن ينشأ أولادهم فى الصحراء ليستنشقوا الهواء النقى وينشأوا فى جو خالٍ من التلوث والإختناق.

هذا إلى جانب أن آمنة مع فرحها بوليدها وسعادتها بقدومه ومولده إلا أنها كانت حزينة ومتأثرة من أجل أن هذا الوليد لم ير أباه وفقده وهو فى بطن أمه. ولم يترك له إلا بيتاً متواضعاً وحاضنته الحبشية. هى بركة أم أيمن وخمسة أجمل. هذه كانت تركة عبد الله كلها بعد وفاته.

فكرت آمنة فى وليدها اليتيم وكيف يواجه الحياة وإن كانت قد رأت فى منامها ورأت فى حملها به ما يطمئن قلبها. إلا أنها لا تزال تفكر. ولعل هذا التفكير كان سبباً فى نقص لبنها. فكان وليدها لا يشبع مما جعلها تدفع به إلى ثويبة جارية أبى لهب لترضعه ففازت ثويبة بأمرين عظيمين عند ميلاد محمد.

الأمر الأول: أن الله تعالى من عليها بالحرية بعد الرق. والأمر الثانى أنها حظيت برضاع هذا الوليد العظيم.

ولما كان العرب من عادتهم إسترضاع أولادهم فى البادية كما ذكرنا ولما كان لبن آمنة لا يكفى محمداً فكرت آمنة وفكر جده عبد المطلب فى أن يسترضعاه فى البادية.

وجاءت المراضع من بادية بنى سعد ومن بينهن حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب ومعها زوجها أبو كبشة ومعهما طفل رضيع هو إبنهما عبد الله. والذى كان لا ينام ليلة من شدة جوعه. ومعهما شارف أى ناقة عجفاء لا تبض بقطرة لبن.

وكانت حليمة تركب إتاناً -وهو أنثى الحمار- كانت عرجاء. وجلست المرضعات تعرض عليهن الأطفال. فكان كلما عرض محمد على واحدة منهن وعلمت أنه يتيم قالت: وما عسى جده وأمه أن يفعلا. ولقد جئت كي أرجو الرزق. فكن ينأين عنه ويرفضنه حتى أخذت كل مرضعة رضيعاً ولم تبق إلا حليمة فخشيت أن ترجع من غير رضيع وعز عليها ذلك. فقالت لزوجها: ماذا لو أخذنا هذا الوليد اليتيم. لكان خير لنا من أن نرجع من غير رضيع فقال لها زوجها: لا عليك يا حليمة. فذهبت إلى آمنة وأخذت منها الوليد محمداً. وما لبثت أن تضعه على صدرها وتلقمه ثديها إلا وحفل ثدياها باللبن وشرب محمد وشرب أخوه عبد الله.

وقام أبو كبشة إلى شارفه العجفاء فإذا بضرعها يحفل باللبن، فحلبها وشرب وشربت حليمة، وباتوا بخير حال ونام الطفل الذى كان لا ينام من جوعه. فلما أصبحوا قال أبو كبشة لحليمة: والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

وهمت حليمة وزوجها وإبنهما عبد الله ومحمد بالرحيل إلى بادية بن سعد مع باقى المراضع وحدث شئ عجيب. الإتان التى كانت تركبها حليمة والتى كانت عرجاء إذ بحليمة تسبق أخواتها من المراضع حتى وأنهن عجبن من ذلك وسألنها: أليست هذه إتانك التى كنت تركبينها؟ قالت: بلى.

أمر آخر: وهو أن غنم حليمة كانت ترعى وتعود بطاناً وكان اللبن يملأ ضرعها. وكان بنو سعد يقولون لرعيانهم: إرعوا حيث ترعى غنم حليمة.

وبالجملة فإن بيت حليمة ملء بركة وخيراً وعاشت حليمة وأسرتها فى خير حال وأهدأ بال وأمن وإستقرار. وما ذلك إلا ببركة هذا الطفل اليتيم الكريم العظيم الذى أكرمه الله وأكرم به. وانتهت مدة الرضاع وهما حولان كاملان. وأخذت حليمة ولدها الرضيع كى تعيده إلى أمه وكان قد شب

وترعرع ونما. وكان بخير حال. فلما رأته أمه فرحت به فرحاً شديداً. وفرحت أكثر أنها رأت نموه وخيره وأنه بحال طيبة.

وهذا الذى جعل حليمة ترجو آمنة أن تعيد إليها محمداً مرة ثانية قائلة: إنى أخاف على ولدى من جو مكة وحرها الخانق، أستحلفك با لله أن تعيديه إلي حتى لا يصيبه أذى من جو مكة وحرها. وبعد إلحاح شديد من حليمة. ولأن آمنة ترجو لولدها الخير آثرت أن تعيده إليها رغم أنها فى حاجة ملحة إلى أن يكون معها كى يؤنس وحشتها ووحدتها وعاد الوليد العظيم مع حليمة إلى بادية بني سعد. ولكن حدث أمر عجيب خطير.

الفصل العاشر

فى شق صدره الشريف عليه السلام

ذلك أن محمداً كان يلعب مع أخيه الصغير من الرضاع عبد الله. فإذا بهذا الطفل يعود إلى أبويه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة ويقول: أدركا أخى محمداً. فانزعجت حليمة وزوجها وقالا: ماذا جرى. قال لهما: لقد رأيت رجلين عليهما ثياب بيض أخذا محمداً وأضجعاه وشقا صدره.

فهرولت حليمة وزوجها مسرعين إلى محمد. فإذا به واقف وعليه السكينة والوقار وكأنه لم يصب بأى شئ إلا أنه يتصبب عرقاً. لكن لا أثر لجرح ولا قطرة دم ولا ألم فسألاه: مالك يا محمد؟ فقص عليهما ما قص أخوه من الرضاع. وقال لهما: إن هذين الرجلين أضجعانى وشقا صدرى والتمسا شيئاً لم أعرفه.

هذا الحدث العجيب الخطير العظيم جعل حليمة وزوجها يتخوفان ويخافان على محمد وقال زوجها: إذهبى به إلى أمه فإنى أخشى أن يكون قد أصابه أذى أو مسه جن وتعود حليمة مسرعة إلى آمنة. وتتعجب آمنة من هذا العود. وتقول لها: كيف كنت بالأمس ترجيننى أن أعيد إليك محمداً. واليوم تعيدينه إلى.

وحاولت حليمة أن تخفى الأمر. إلا أنها لم تستطع إلا أن تقص على آمنة ما كان، فعجبت حليمة أنها رأت آمنة وكأنها لم يبد عليها أى شئ. ثم قالت آمنة: أتخافين على محمد؟ قالت: نعم. قالت لها: لا تخافى على ولدى فإنى لم أشعر فى حمله بتعب ولا ألم ولا شئ ورأيت نوراً خرج مني أضاء قصور بصرى بالشام. وسمعت هاتفاً يقول: أبشرى يا آمنة فقد حملت بسيد العالمين.

ثم تذكرت حليمة شيئاً. قالت لها: يا آمنة إننى وأنا عائدة إلى بادية بنى سعد لقيت أناساً من نصارى نجران. فقلت لهم: إنظروا إلى ولدى هذا وأخبرونى

عن حاله. فلما تفحصوه وعلموا أمره قالوا: إن هذا الولد سيكون له شأن عظيم. فهل أبوه حي؟ فقلت لهم: نعم. وأشرت إلى زوجي وقلت: هذا أبوه. لأنهم كانوا قد عزموا على أن يأخذوه لو علموا أنه يتيم ليتربى فينشأ عندهم حتى يحظوا بشرفه وبركته. ثم لقيت أناساً من اليهود، فلما رأوه وتفحصوا أمره، قالوا: إن هذا الغلام سيكون له شأن ولا بد وأن نقتله حتى لا يظهر أمره علينا.

وكدت أن أرجع به إليك، إلا أنى كنت أقرب إلى باديتى. وتعود حليمة السعدية بمحمد مرة ثالثة إلى باديتها حتى يمكث معها ما شاء الله أن يمكث. وكان عمره آنذاك ثلاث سنين ولنترك محمداً وحليمة فى بادية بنى سعد ونعود مرة ثانية إلى حادث شق الصدر.

فلقد شق صدره صلوات الله وسلامه عليه مرتين. الأولى: وهو إبن عامين أو ثلاثاً والثانية ليلة أسرى به.

وقيل إن هذا الشق كان ثلاث مرات. المرة الأخرى أو الثالثة عند بدء الوحى.

والسؤال: هل كان هذا الشق حقيقة أم مجازاً؟

ذهب فريق من العلماء أن هذا الشق كان على سبيل المجاز وليس على سبيل الحقيقة. وقالوا: إن هذا الشق إنما هو كناية عن شرح الصدر. والذى أشار إليه القرآن الكريم حيث يقول مذكراً النبى الكريم ﷺ بنعم الله عليه والتى لا تعد ولا تحصى. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾[1].

وقالوا أن النبى الكريم ﷺ غير محتاج إلى شق الصدر حيث أنه خير خلق الله أجمعين.

واستدلوا بأمر وهو أن أمهات المؤمنين رضى الله عنهن سألنه صلوات الله وسلامه عليه قائلات: أينا اسرع لحوقاً بك يا رسول الله. فأجابهن ﷺ: أطولكن يداً.

---

(١) سورة الشرح الآية رقم: ١.

فأتين بقضيب وراحت كل منهن تقيس يدها. ولكن بعد وفاته ﷺ كان أسرعهن لحوقاً به هى سودة بنت زمعة رضى الله عنها. فعلمن أن النبى ﷺ لا يقصد بهذه الإجابة الطول الحقيقى. وإنما هى إجابة على سبيل المجاز. لأن سودة رضى الله عنها كانت يدها طولى فى البذل والإنفاق والسخاء.

لكن جمهور العلماء يرى أن هذا الشق إنما كان حقيقة لا مجازا لأن الغاية منه ليست شق الصدر للتطهير. وإنما الغاية كانت ظهور أمر خارق للعادة ليكون إرهاصاً فى طفولته وتقدمة ومقدمة للأمر العظيم الذى ينتظره.

وكان هذا الأمر فى بدء رسالته وعند بدء رحلته فى الإسراء والمعراج على سبيل المعجزة وبعد. فلنعد إلى بيت حليمة السعدية رضى الله عنها حيث مكث محمد ﷺ عندها عامين أخرين بعد شق الصدر. وعاد إلى أمه آمنة وهو فى الخامسة من عمره.

الفصل الحادى عشر

إنتقاله ﷺ فى طفولته إلى يثرب ووفاة أمه آمنة

ولما بلغ السادسة أخذته أمه آمنة ومعها بركة الحبشية أم أيمن وذهبت به إلى المدينة كى يشهد ويشاهد قبر أبيه عبد الله ويعرف أخوال أبيه. وتلك فطرة سليمة وسنة حسنة. أن ينشأ الطفل على معرفة أقاربه وذويه حتى لا ينشأ وحيداً منطوياً غير محيط بالمجتمع الذى حوله. هكذا فعلت آمنة بفطرتها وطبعها وسجيتها ومكث محمد وأمه بالمدينة شهراً كاملاً.

ولما عزمت آمنة على الرحيل والعود إلى مكة. وبينما هى وابنها وحاضنته بركة يمرون بقرية تسمى الأبواء إذ فاجأ آمنة الموت. وخرجت روحها الطاهرة بقرية الأبواء. وأبنها محمد الطفل الصغير يشهد موتها بعينى رأسه.

وها هو يذوق ألم الحزن ويحسه . حيث إنه لم ير أباه ولم يشهد حتفه وموته وكانت آمنة وهى تجود بأنفاسها الأخيرة تقول كلمات ذكرها ووعاها لها التاريخ تقول: كل حى يموت وكل جديد يبلى. وكل كبير يفنى. وإنى والله ميتة وذكراى باقية. فلقد ولدت طهراً وتركت خيراً.

وها هو محمد الولد الطفل اليتيم يعود إلى مكة مع حاضنته بركة يعودان إثنين بعد أن كانوا ثلاثة وبعد أن القيت آمنة تحت الثرى فى قرية الأبواء.

الفصل الثانى عشر

فى كفالة جده عبد المطلب

وها هو محمد يفقد أمه وأباه فيتولاه جده عبد المطلب الشيخ المسن الوقور المهاب بمكة وكان عبد المطلب يحب محمدا حباً جماً، وزاد حبه له وشفقته عليه بعد أن فقد أمه فكان يقربه منه ويحنو عليه ويعامله معاملة خاصة حتى وإن كتاب السيرة ليذكرون أنه كان لعبد المطلب فراشا خاصا يجلس عليه عند الكعبة وكان لا أحد من أبنائه يستطيع أن يدنو من هذا الفراش ولا يجلس فوقه فإذا دنا محمد من جده وجلس بجواره وأراد أعمامه أن ينحوه من فوق هذا الفراش زجرهم عبد المطلب وهو يقول: دعوا ولدى، فوالله إن له لشأنا. وعاش محمد يتمتع بالحب والشفقة والحنان والود والمشاعر النبيلة الطيبة التى تملأ قلب جده والتى تعوضه عن فراق أبويه وتزيل عنه ألم اليتم ومرارته إلا أن القدر لم يمهل محمداً يتمتع بهذا الأمن والأمان إلا عامين.

الفصل الثالث عشر

وفاة جده وكفالة عمه أبوطالب

ومات جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين وحزن محمد حزناً شديداً على جده حتى أنه روى أنه سار فى جنازته وهو يبكى ولنتصور طفلاً فى الثامنة من عمره وهو يبكى على فراق جده إنه لبكاء نابع من القلب والأحاسيس والوجدان وإنها لدموع صادقة تُبكى وتُدمع من حولها وهنا نذكر ونتذكر الأمام علياً كرم الله وجهه حينما سأله أصحابه وقالوا له: يا إمام إنك إذا ذكرتنا ووعظتنا كان لموعظتك أثر فى قلوبنا وإذا وعظنا غيرك لا يتعدى كلامه الآذان فأجاب على يمثل على ذلك حيث قال: «النائحة الثكلى أشد وقعاً وخطراً من النائحة المستأجرة»، أى أن الدموع ليست كلها صادقة فهناك من يتباكى مجاملة أو نفاقاً لكن إذا كان البكاء صادراً من المثكول المصاب فإنه يُبكى من حوله حتى إذا لم يبكِ فإنْ من يراه يبكى فما بالنا إذا كان هذا الباكي مصاباً ومصاباً فى جده بعد فقد أبيه وأمه وهو ابن الثامنة.

ولنسأل عن الحكمة الألهية فى يتم هذا الطفل المبارك الذى إصطفاه ربه على العالمين قاطبة فى الأرض والسماء والذى سيكون نبياً ورسولاً للثقلين الجن والإنس وإلى يوم القيامة والذى سيكون إماماً للأنبياء والرسل فى بيت المقدس بالمسجد الأقصى بعد نيف وخمسين عاما من ميلاده الشريف والذى سيرتقى عليهم فى السماوات العلا والذى سيرتقى على جبريل سفير الوحى وأمين السماء عند سدرة المنتهى والذى سيشفع للعالمين يوم القيامة حتى يأذن الله ويتفضل عليهم بفصل الخطاب والذى ستفتح الجنة على يديه وهو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة والذى.. والذى.. والذى... تساؤل يفرض نفسه ما هى الحكمة الألهية من يتمه ويجيبنا القدر الإلهى وكأن لسان حال القدر

يقول: إن الله تبارك وتعالى لا يغير قدراً من أجل حبٍ أو قربٍ أو رفعةٍ ولو كان ذلك كذلك لكان محمد أولى الخلق بتغيير القدر.

ثانيا: شاء الله أن يكون محمد يتيماً حتى يكون أية للأيتام من بعده وأنه إذا كان اليتم نقيصة أو إذا كان يحدث ضرراً فى حياة اليتيم ما أُيتم محمد.

ثالثا: وهو الأهم إن الله تبارك وتعالى أراد ألا يكون محمدٌ كريماً فى الدنيا من أجل أبويه وحتى تربيه وتُنشأه عناية السماء وحتى لا يكون لأحد من أهل الأرض فضل فى تنشأته كما شاء سبحانه وتعالى. أن يكون محمدٌ أمياً حتى لا يتلقى العلم إلا من السماء كما شاء سبحانه وتعالى أن يهاجر من مكة وأن يخرجه قومه ويعود إليهم بعد عشر سنين فاتحاً منتصراً معه عشرة آلاف مسلم كلهم يقول: لاإله إلا الله هم جيش الإسلام وعدته وعداده وعماده حتى لا يقال إن محمداً إنتصر بأهله وعشيرته.

الفصل الرابع عشر

فى كفالة عمه أبى طالب

وكان عبد المطلب قد أوصى إبنه أبا طالب بأن يقوم على رعاية محمد بعد وفاتة لإن ابا طالب كان الأخ الشقيق لعبد الله وتولى أبو طالب محمداً وكان رجلاً قليل المال كثير العيال وكان أولاده كثيراً لا يشبعون من الطعام لقلة مال أبيهم.

فيذكر المؤرخون أن محمداً إذا جلس بين أبناء عمه أبى طالب على الطعام كانوا لا يقومون إلا شباعا وكان أبو طالب يحرص كل الحرص على أن يأكل محمد مع أبنائه وكانوا إذا إستيقظوا من نومهم فى الصباح قاموا عمصاً رمصاً أى أن وجوههم تكون غير حسنة لكن محمداً كان إذا إستيقظ من نومه يقوم ووجهه كالشمس وجبينه كالقمر إذا تلاها وكيف لا وهو سيأتى بشريعة بيضاء كالنهار إذا جلاها.

الفصل الخامس عشر

فى رعيه ﷺ الغنم وسفره إلى الشام وموقف بحيرا الراهب

وروى أنه عليه السلام كان قد عمل وهو صغير برعي الغنم وقد رعى موسى عليه السلام قبله للرجل الصالح الذى تزوج بنته على أن يعمل له ثمان حجج أى سنوات أو عشر، فرعي الغنم يعلم الصبر والحكمة وهو رمز لما هو مستقبل حيث أنه ﷺ سيسوس ويرعى أمة. ولما بلغ عليه السلام الثامنة عشرة من عمره إصطحبه عمه أبو طالب إلى الشام كى يتعلم التجارة حيث كانت مهنة قريش كما ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالي: ﴿لإيلاف قريش۞ إيلافهم رحلة الشتاء الصيف﴾[1].

كان لهم رحلة فى الصيف إلى الشام ورحلة فى الشتاء إلى اليمن.

وأخذه عمه معه إلى الشام ليعلمه التجارة وإذا كان رعيّ الغنم يعلم الصبر والسياسة وإدارة الرعية والرعى فإن التجارة تعلم كيفية التعامل مع الناس وتكسب إتساع الأفق وحينما وصلت القافلة إلى الشام وحينما مرت براهب يقال له بحيرا نظر هذا الراهب فى رجال القافلة فأستوقفه هذا الصبى وكأنه أنس فيه شيئاً فأرسل غلامه إلى هؤلاء الرجال ليقول لهم أن سيده قد وضع لهم طعاماً ويدعوهم إلى تناول الطعام عنده فاستجابوا وأجابوا الدعوة إلا أنهم تركوا محمداً ﷺ عند الأبل والتجارة كي يحرسها فسألهم بحيرا: هل تخلف منكم أحد؟ قالوا ما تخلف منا إلا صبي تركناه عند رحلنا، وأصر بحيرة على حضور محمد ولما حضر نظر في وجهه وكشف عن ظهره فوجد خاتم النبوة وسأل الرجال: هل هذا الصبى أبوه حي؟ فقال أبو طالب: نعم، أنا أبوه. فقال الراهب: لا لست

---

(١) سورة قريش الآيتين: ١، ٢.

أباه فإنه لا ينبغى أن يكون أبوه حياً فاصدقنى القول فلما أخبره عمه أبو طالب بالصدق وأن أباه قد مات وهو فى بطن أمه قال: يا أبا طالب أرجع بابن أخيك فإنه سيكون هو النبى المنتظر والذى يبعث من مكة والذى يكون يتيما ولوراه اليهود لقتلوه، وتلكم أرهاصة أخرى من الإرهاصات التى سبقت الرسالة الخاتمة.

الفصل السادس عشر

تجارة النبى الكريم ﷺ فى مال خديجة وزواجه منها

ولما بلغ الخامسة والعشرون من عمره المبارك الشريف بدأت صلته بالسيدة الفاضلة التقية النقية الذكية أولى أمهات المؤمنين خديجة وإذا كنا لسنا بصدد ذكر أمهات المؤمنين الطاهرات إلا أننا نتحدث عن هذه المرأة العفيفة وذلك لعدة وجوه:—

الوجه الأول: انها اول أمرأة تدخل حياة النبى ﷺ.

الوجه الثاني: أنه لما تزوجها ﷺ عاش معها أربعة وعشرين عاماً أو خمسة وعشرين عاماً لم يتزوج عليها.

الوجه الثالث: أنها كما وصفها عليه السلام أنها آمنت به إذ كفر الناس وصدقته إذ كذبه الناس وواسته بمالها إذ حرمه الناس ورزقه الله منها البنين ولم يرزق بهم من غيرها.

الوجه الرابع: أن السيدة خديجة رضى الله عنها هى أقرب نسائه إليه فهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى. وقصى هو أحد أجداده صلوات الله وسلامه عليه.

وأما نسبها من جهة أمها كما يذكر المؤرخون فأمها فاطمة بنت زائدة بنت عبد الله بن عمر بن لؤى.

فالسيدة خديجة قرشية ذات عراقة واصالة وشرف ونبل رضى الله عنها وعن أمهات المؤمنين جميعا.

كيف بدأت صلة النبى الكريم بالسيدة خديجة؟ كانت خديجة ذات مال وكانت تبعث الرجال ليتجروا لها فى هذا المال إما بالأجر وإما بالمضاربة والمضاربة من المفاعلة وهى ان يشترك إثنان أو اكثر فى تجارة أو فى عمل ما

يكون أحدهم بماله والآخر بعمله على أن يكون له نصيب من الربح وهذا أمر شرعه الإسلام وأقره بشروطه المبينة فى كتب الفقه، وكانت خديجة رضى الله عنها تستأجر الرجال بيكرين أى جملين صغيرين فأتى إليها أبو طالب وحدثها فى أن تبعث محمداً فى تجارتها على أن يكون ضعف ما تعطى الرجال فأجابته خديجة قائلة: والله يا محمد لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك فكيف وقد سألت لحبيب قريب. وكانت خديجة قد سمعت عن صدق محمد وأمانته وحسن معاملته وأخلاقه حتى وأنه لقب بالأمين وكاد هذا الإسم أو هذا اللقب أن يغلب عليه فكانت قريش لا تناديه ولا تذكره إلا به وقيل أن أبا طالب كلم ابن اخيه فى أن يذهب إلى خديجة ويعرض نفسه عليها ليسافر فى تجارتها وكان مما قال: يا ولدى إنك تعلم اننا فى حاجه إلى المال وأن خديجة تبعث الرجال فى مالها فاذهب إليها واعرض عليها أن تسافر فى مالها إلى الشام وإن كنت أخاف عليك، لكن الحاجة إلى المال هى التى جعلتنى أقول ذلك أو كما قال.

فأجابه النبى الكريم ﷺ قائلاً ما معناه أنا لا أذهب إليها ولكنها تبعث إلي إن شاءت قال ذلك فى عزة وكرامة وعفة وتصون ولم يقل ذلك تكبراً أو تعالياً وحاشاه أن يكون كذلك، وسواء كان الأمر هذا أو ذاك فإن محمداً سافر إلى الشام فى مال خديجة وبعثت معه غلامها ميسرة فرأى ميسرة وسمع ما يدل عفة وشرف هذا الرجل المبارك.

رأى حسن تعامله معه فكان لا يأكل إلا معه ولا يجلس إلا معه، ورأى صدقه وأمانته فى البيع والشراء ورآه وقد جلس ليستظل تحت شجرة فرآه راهب وسأل ميسرة عنه فقال له: هو رجل من مكة فقال الراهب ما أرى هذه الشجرة إلا وجلس تحتها نبى. كما رأى ميسرة فيما يزعمون أنه عليه السلام إذا كانت الشمى حارة رأى ما يظله من حر الشمس. كل هذه الأمور إلى جانب الربح الوفير الذى حصل وكان فى مال خديجة وما ذكره ميسرة لها. جعلها رضى الله عنها تفكر فى الزواج منه وكان عمرها آنذاك أربعين عاما وكانت ذات جمال

إلى جانب مالها وليسرها ونضجها خطبها أثرياء مكة إلا أنها رفضت الزواج من أحدهم لأنها كانت تعلم برجاحة عقلها ونضجها وحصافتها أن هؤلاء الرجال ما خطبوها إلا لمالها وذلك لأنها تزوجت مرتين تزوجت بهند بن زرارة بن النباش أو ابن النباش بن زرارة، وأنجبت منه ولداً اسمه هند وكانت تكنى به فيقال لها أم هند كما أنجبت منه بنتاً أسمها هالة.. أما زوجها الثانى فهو عتيق بن عائد المخزومي، وانجبت منه بنتاً أسمها هند وليس ترتيب الأسمين يقصد به الترتيب فى الزواج لكن الله أعلم أيهما سبق الأخر فى الزواج منها.

لكنها لما رأت وسمعت عن محمد الأمين أرادت أن تتزوج منه وتفتح قلبها بعد أن أغلق فى وجوه الرجال ذوى المال. لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الرغبة إنها تبعث إليه فى أدبٍ وعفافٍ أمراة اسمها نفيسة بنت أمين فتقول له يا محمد لِمَ لَمْ تتزوج؟ فيقول: ليسّ لى مال. فتقول نفيسة رضى الله عنها، لأنها أسلمت وحسن إسلامها وهاجرت وروى عنها احاديث، فكيف إذا دعيت إلى المال والجمال، يقول: من؟ قالت: خديجة، فلما علم برغبة خديجة منه حدث أعمامه فى ذلك وذهب معه أبو طالب فخطب له خديجة من عمها عمرو بن أسد لأن أباها كان قد مات منذ عهد بعيد فى حرب الفجار.

خطب أبو طالب خديجة لإبن أخيه، وألقى كلمة فى حفل العرس قال فيها: الحمد لله الذى جعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم أن محمد إبن أخى وإن كان فى المال قُلاً، إلا أنه لا يوزن به فتىً من قريش إلا رجح عليه شرفاً وعقلاً وفضلاً ومثلاً، وإن له رغبة فى الزواج من خديجة، ولها مثل ذلك، وتم الزواج الشريف العفيف المبارك فى جوٍ إسلامى، فمن السنة أن تلقى كلمة فى عقد الزواج كما تم بعقدٍ شرعى وصداق.

ولعل سائلاً يقول: كيف له أن يقبل مثل هذا الزواج بامرأةٍ تكبره خمسة عشر عاماً؟ وهل كان هذا الزواج من أجل قلة حاله وكثرة مال خديجة.

أقول: لا، إن هذا الزواج بخديجة ذاتها له غايةٌ معنوية، فمحمد قد حُرِمَ من عطف الأم وهو إبن السادسة كما مر بنا فكان محتاجاً إلى قلب امرأة مثل خديجة كي تعوضه حنان أمه. أيضاً فإن مشيئة الحق سبحانه قضت واقتضت أن تكون خديجة هي الزوجة الأولى لمحمد كي تعيش معه مرحلتين. الأولى قبل الرسالة. والثانية بعد الرسالة. ولا تستطيع إمراة أياً كانت تلك المرأة أن تواكب أحداث ما قبل الرسالة، وكيف بدأت كما فعلت.

وتم الزواج المبارك الهنيء في بيت يملؤه الود والحب والسكينة والوقار وكل المعاني السامية. لأنه زواج بني على التكافؤ الخلقي وعلى الود والحب والطهارة.

عاشت خديجة مع محمد أماً وأختاً وزوجةً وصديقة ووزيرة وكل صفة تدل على الطهارة والود.

قدمت إليه حياتها كلها بما فيها من مال وجمال وقلب طاهر. ورزقه الله منها البنين والبنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله والقاسم قبل الرسالة.

وعاشت خديجة مع زوجها وكأن القدر اختارها له، واختاره لها. بل هو كذلك.

الفصل السابع عشر

فى تجديد الكعبة ووضعه ﷺ الحجر بيده الشريفة

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره وعزمت قريش على تجديد الكعبة وشاركت كل القبائل فى تجديدها وبناءها وإعدادها ما كان لأحد فضل على أحد. ولا لقبيلة فضل على أخرى. حتى عزموا على وضع الحجر فى مكانه. فاختلفوا أى قبيلة تسمو إلى هذا الشرف ويكون لها فضل وضع الحجر. حتى كادوا أن يقتتلوا. ثم قال قائل منهم: لنحكّم فينا أول من يدخل علينا ونرتضي حكمه فكان الداخل هو محمداً. ففرحوا واستبشروا لأنهم كانوا قد عزموا على أن يرتضوا أي رجل يدخل البيت فيحكم فيهم. فكيف إذا كان الداخل هو الأمين.

قالوا: مرحباً، فهذا هو الأمين، ونعم الحكم. فلما قصوا عليه أمر خلافهم. قال محمد الحكيم الأمين. قال: إئتوني برداء. فأتوه ووضع الحجر فيه ثم إقترح عليهم وحكم بينهم أن تختار كل قبيلة رجلاً منها. فاختاروا وأمسك كل رجل بطرف من هذا الثوب. وحملوه إلى مكان الحجر. فجاء هو عليه السلام وتناول الحجر بيده الشريفة، ووضعه في مكانه. وبهذا يكون قد حسم الخلاف وإنتهت المشكلة. وإنتهى الأمر على خير.

وبهذا يكون قد مر بالبيت الحرام ثلاث مراحل.

الأول: مرحلة البدء حيث بناه آدم أو الملائكة عليهم السلام.

الثانية: حينما أمر الله إبراهيم عليه السلام برفع قواعده فكانت هذه مرحلة الوسطية.

ثم كانت المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الكمال حيث تمت على يد النبي الكريم ﷺ قبل بعثته بخمس سنين.

الفصل الثامن عشر

في غار حراء وبدء الوحي

ثم بدأت مرحلة جديدة في حياة النبي الكريم ﷺ، وهي ما قبل الوحي، حيث كان يحب الخلوة، وأعني بما قبل الوحي، نزول الأمين جبريل عليه السلام، لأنه قبل أن يحب النبي الكريم الخلوة والتأمل، بدأ الوحي يأتيه رؤيا في المنام، وكان قبل ذلك في شهر ربيع الأول بعد أن أتم الأربعين من عمره عليه السلام. كما حدثت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها. حيث قالت كما جاء في صحيح البخاري: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فالرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة. لأن الرسالة تمت في ثلاث وعشرين سنة، منها ستة أشهر قبل نزول جبريل. وكان الوحي رؤيا، فالرؤيا من الله عز وجل، وليس هذا جديداً ولا غريباً، فإن رؤيا الأنبياء وحي، فها هو إبراهيم ﷺ جاءه الأمر بذبح ولده إسماعيل مناماً كما مر بك.

أحب النبي الكريم الخلوة والتأمل، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه أي يتعبد، ويترك الحنث الليالي ذوات العدد. وكان يرجع إلى أهله ليتزود لذلك. وكانت زوجه خديجة خير معين له على تحقيق رغبته، ألم أقل لك أن خديجة رضي الله عنها ساقها القدر إلى محمد، لأن أحداً من النساء كانت لا تستطيع أن تؤدي الدور الهام في حياة النبي الكريم ﷺ إلا خديجة، أعانته بمالها في فترة التأمل، كفته مؤونة البيت له ولبناته، وكانت تقوم على خدمة بناتها وحدها دون أن تُشعر النبي الكريم ﷺ بأية مشكلة.

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك. وبينما التبي الكريم ﷺ في تأمله، إذ هبط عليه الأمين جبريل.

ولأول مرة والنبي لا يعرف هذا الأمر ولم يسبق له أن رآه. وإذا بجبريل عليه السلام يضمه ضمة شديدة، ويقول له: إقرأ. فيقول النبي الكريم ﷺ: ما أنا بقارئ.

هذه الجملة لها معنيان: إما أن تكون جملة نفي، ومعناها: إني لا أعرف القراءة، وإما أن تكون جملة إستفهامية تعجبية، أي كيف أقرأ وأنا لا أعرف القراءة؟

فيضمه جبريل ضمة شديدة مثل الأولى ويقول له: إقرأ. فيعيد النبي الكريم ﷺ ويعود قائلاً: ما أنا بقارئ، فيضمه الثالثة ويقول له: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق۝ خلق الإنسان من علق۝ اقرأ وربك الأكرم۝ الذي علم بالقلم۝ علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1]. بهذه الآيات الكريمات من سورة العلق، بدأ الوحي الكريم المنزل على النبي الكريم ﷺ، دعوة إلى القراءة والعلم والتعلم والتعليم وهذا رمز وتلك أول إشارة لتكريم الله تعالى للعلم والعلماء.

فماذا كان من أمر النبي الكريم ﷺ؟ لقد رجع إلى خديجة يرجف فؤاده ويقول لها: زملوني! زملوني! فماذا فعلت خديجة رضي الله عنها؟

إنها كانت يملأ قلبها السكينة والطمأنينة، ولم تسأله عن سر خوفه، فزملته وتركته حتى هدأت أنفاسه، وذهب الروع من قلبه، ثم قال لها: والله يا خديجة لقد خشيت على نفسي. وقص عليها ما حدث له في غار حراء، فإذا بهذه المرأة العاقلة التقية الذكية إذا بها تقول له وتطمئن قلبه: والله لا يخزيك الله أبداً، ثم تقدم له الأدلة على ذلك فتقول: إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف أي تكرمه، وتحمل الكّل، أي تعين الضعيف على حياته، وتكسب المعدوم، أي تعطي الفقير

---

(١) سورة العلق الآيات أرقام: ١ - ٥.

والمسكين المال، أي تعينه على الحياة، وتعين على نوائب الحق، فمثلك لا يخزيه الله أبداً.

هكذا عرفت خديجة تلك الحقائق، وعرفت أن الذي يكون متصفاً بتلك الصفات العظيمة، لا يخزى ولا يذل ولا يُهان ولا يتركه ربه. عرفت ذلك قبل أن ينزل قرآن، وقبل أن يكون هناك دستور سماوي. عرفت ذلك بفطرتها وإيمانها القلبي، وحصافتها ورجاحة عقلها.

ثم إنها أرادت أن تستوثق لنفسها ولزوجها مما قالت، فإذا بها تأخذ زوجها الكريم، وتذهب به إلى ورقة بن نوفل رضي الله عنه، وكان قد تحنف، أي ترك دين الجاهلية وعبادة الأصنام وتنصر، وكتب بالعبرانية الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة له: اسمع من ابن أخيك ما يقول.

فقص النبي الكريم على ورقة ما كان، فإذا بورقة يسجد لله ضارعاً وهو يقول: قدوس قدوس، ثم يقول: لئن كان ما تقول، فوالله إن هذا لهو الناموس الذي نزل على عيسى عليه السلام، والناموس هو السر، ثم قال: ليتني فيها جذعاً، أي قوياً، إذ يخرجك قومك. فوالله لتُكذَّبنّه ولتؤذينه ولتُخرجنه ولتقاتلنه. فقال النبي الكريم ﷺ متعجباً وسائلاً ومتسائلاً: أو مخرجيّ هم؟ فقال ورقة: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

وبهذا بدأت مرحلة الدعوة الجديدة. إلا أن هذه الدعوة سبقها الإعداد الإلهي للنبي الكريم، فكان بين آيات إقرأ وبين قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ ثلاث سنين، واستقبل بيت خديجة لأول مرة وحي السماء، وكان بيت خديجة هو أول بيت يستقبل لا إله إلا الله، وكانت الأسرة المحمدية ومعهم زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب، كانوا هم أول من دان بالإسلام والرسالة المحمدية العظيمة.

الفصل التاسع عشر

مراحل الدعوة الإسلامية

وبهذا بدأت الدعوة الإسلامية المحمدية القديرة العظيمة الخاتمة، لكنها كانت على مرحلتين.

الأولى: كانت سرية، ثلاث سنين.

الثانية: كانت جهرية، يعلمنا الحق تبارك وتعالى من خلال الإسلام يعلمنا التدرج في الأمر حتى يتم، هكذا الإسلام، وهكذا في تشريع تحريم الخمر، وتحريم الربا، ومشروعية الصيام، وكذلك الصلاة والزكاة أيضاً، كل هذه العبادات كانت على مراحل، وكان فيها تدرج.

وقبل أن نبدأ الحديث ونعيش مع الجهر بالدعوة نود أن نشير إلى كمال النبي العظيم، الكمال البشري خَلقاً وخُلقاً، فإن الله تبارك وتعالى ذكر نبيه في القرآن الكريم خَلقاً وخُلقاً قال تعالى: ﴿والنجم إذا هوى۝ ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[1]. أي ما ضل عقله وما غوت نفسه، وكيف يضل عقله؟ وكيف تغوى نفسه؟ وهو النبي الخاتم، الذي فضله الله على سائر خلقه، كما ذكى نطقه فقال: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[2]، وزكى شرعه ﴿إن هو إلا وحيٌ۝ يوحى علمه شديد القوى﴾[3]، وهو جبريل عليه السلام، وزكى فؤاده فقال: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾[4]،وزكى بصره فقال: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾[5]، وزكى خُلُقه فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[6]، وذكى بعض

---

(١) سورة النجم الآيتين: ١، ٢.

(٢) سورة النجم الآية رقم: ٣.

(٣) سورة النجم الآيتين: ٤، ٥.

(٤) سورة النجم الآية رقم: ١١.

(٥) سورة النجم الآية رقم: ١٧.

(٦) سورة القلم الآية رقم: ٤.

أعضائه الشريفة في كتابه الكريم حيث يقول سبحانه: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾(١)، ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾(٢)، بل إنه سبحانه وتعالى أقسم في القرآن الكريم بحياته المباركة، فقال: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾(٣)، أي وحياتك يا محمد، وجعل فيه الأسوة الحسنة، حيث يقول سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾(٤).

فهو اسوة في حياته كلها، في طفولته، وفي صباه، وفي شبابه، وفي كهولته، وقبل الرسالة وبعدها، فالأيتام يجدون فيه الأسوة، يتظللون ويطمئنون إذا ذكروه، أو إذا ذكر لهم، والعاملون يباهون بعملهم الشريف، ويعلمون أنه ليس هناك عمل شريف وعملٌ وضيع مادام العمل طيباً وحلالاً، حيث أن نبيهم القدوة عمل أجيراً في رعي الغنم، وعمل في مال خديجة، والصبية والشباب يجدون فيه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، حيث لم يلهُ كما يلهو الشباب، بل حفظه الله من كل سوء، والتجار يجدون فيه الأسوة الحسنة، وكيف كان أميناً وصادقاً، حتى أنه عليه السلام لما أُمر بالهجرة من مكة إلى المدينة، ترك إبن عمه علياً، رضي الله عنه حتى يؤدي للناس حقوقهم، ومن هم هؤلاء الناس، إنهم الذين أخرجوه من أحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إليه، وبالجملة فإن الله أدبه وعلمه ورباه واصطفاه، قلت ذلك قبل أن أتحدث عن الجهر بالدعوة، حتى نتصور كيف كانت قريش تجل محمداً وتقدره وتعمل له ألف حساب قبل الرسالة، لكن بعد أن أمِر بالجهر بالدعوة، تنقلب الموازين وينعكس الأمر بالكلية، فهم لم يعادوا محمداً في شخصه، وإنما عادوا ما جاء به، والقرآن الكريم

---

(١) سورة القيامة الآية رقم: ١٦.

(٢) سورة الحجر الآية رقم: ٩٧.

(٣) سورة الحجر الآية رقم: ٧٢.

(٤) سورة الأحزاب الآية رقم: ٢١.

يؤيد ذلك ويبينه فيقول: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون۝ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[1].

ينزل الأمر من السماء بالجهر بالدعوة بعد أن دخل بعض الناس في الإسلام كأبي بكر الصديق، الذي كان أول من آمن من الرجال، وعلي بن أبي طالب، وهو أول من آمن من الصبية، وزيد بن حارثة، وهو أول من آمن من العبيد والأرقاء، وقبلهم خديجة، وهي أول من آمنت من النساء، بل هي أول من آمن قاطبة بالإسلام، بعد من أرسِل بالإسلام.

ينزل الأمر بالجهر ﴿يا أيها المدثر۝ قم فأنذر۝ وربك فكبر۝ وثيابك فطهر۝ والرجز فاهجر۝ ولا تمنن تستكثر۝ ولربك فاصبر﴾[2].

إنه تكليفٌ في تشريف، وإنه أمرٌ في تقدير، نداءٌ من الحق سبحانه وتعالى إلى نبيه، لا يقوله إلا إلهٌ عظيم ولا يصدر إلا عن رب كريم لم يقل له يا محمد كما نادى إخوانه الرسل قبله، بل ناداه بأي، وأي نداءٌ فيه تكريم، وناداه بالمدثر، نداءٌ فيه لطفٌ من الله اللطيف، ﴿قم فأنذر﴾ أي إجهر بدعوتك، ثم يقول تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ إلى آخر الآيات، هذه الأوامر والتكليفات، إنما هي صادرة من الحق إلى أشرف الخلق كي يتسلح بالإيمان والصبر، وهنا يقول عليه السلام: إنتهى وقت الراحة يا خديجة، فكيف بدأ بالجهر بالدعوة.

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم: ٣٣.

(٢) سورة المدثر الآيات: ١ – ٧.

الفصل العشرون

الجهر بالدعوة

إنه بدأ بأهله وعشيرته كما أمره الحق سبحانه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1]، وهذه إسوة حسنة أيضاً، فالإنسان يبدأ بإصلاح نفسه وأسرته وعشيرته، ثم يبدأ في إصلاح الناس، يذكر كتاب السيرة، أنه ﷺ أمر ابن عمه علياً، ليعد طعاما، ليعد ثريداً، ودعا أعمامه وعشيرته لكي يطعموا، فنظروا إلى الطعام، وكأنهم وجدوه قليلاً، وقالوا: كيف لنا بهذا الطعام؟ أيدعونا محمدٌ لكي نأكل هذا الطعام القليل إنه لا يكفي رجلاً واحداً، فقال لهم النبي الكريم: كلوا وبسم الله، فإذا بهم يأكلون حتى يشبعوا، ويبقي الطعام كما هو، وكانوا قرابة الأربعين رجلاً، وكانت هذه أول بركة ومعجزة من معجزاته ﷺ، وبعد أن أكلوا وشبعوا ورأوا الطعام أمامهم، كلمهم النبي ﷺ في أمر الإسلام، فانصرفوا دون أن يجيبوا، فدعاهم النبي ﷺ ثانية في اليوم التالي، فطعموا ولم يجيبوا، فقال عليٌّ: يا محمد إنا حرب على من حاربت، فامضي إلى ما آراك الله، لم يتكلم من القوم إلا أحدثهم سناً، وأعظمهم مقاماً، فنظروا مستخفين بالقول والقائل، فنظروا إلى أبي طالب، وقالوا: إستمع واسمع إلى ولدك وأطعه، وهكذا بدأ العداء المستحكم بين المشركين، وبين قريش، وبين محمد النبي العظيم ﷺ، وراحوا يتفننون في كيف يصرفون محمداً عن دعوته، لماذا؟ لأنهم رأوا أن كيانهم وسيادتهم وسلطانهم يذوب في هذه الدعوة لإنها تسوي بين الفقير والغني، والضعيف والقوي، والكبير والصغير، والعبد والحر، وبعد أن كانوا هم وهم وهم، أصبحوا لاشئ، وصاروا كغيرهم من الناس، فالناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا

---

(١) سورة الشعراء الآية رقم: ٢١٤.

بالتقوى، والأمثلة كثيرة، فهذا بلال الحبشي، وصهيبٌ الرومي، وسلمان الفارسي، وغيرهم ممن كانوا ضعفاء، وكانوا فقراء، بل وكانوا أغنياء وطلقوا الدنيا ولذائذها ومتاعها واستعذبوا العذاب وصدق القائل:

إن لله رجالاً فطناً	طلقوا الدنيا وخانوا الفتنا
نظروا إليها فلما علموا	أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

ثم كانت الدعوة العامة إلى القبائل كلها حيث يقول الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[1]، حيث صعد النبي الكريم على جبل الصفا وهو يقول: واصبحاه، واصبحاه، وكأن هذه إشارة لجمع الناس، فاجتمعت القبائل عليه، أي رجالٌ منها فهم يستمعون ماذا يريد محمد بهذا النداء؟ وقبل أن يُخبرهم بأمر الدعوة الإسلامية والتوحيد، أختبرهم وإمتحنهم في صدقه.

لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الوادي، جاءت لكي تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ، قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً قط، فقال: إني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد، والله لو كذبت الناس كلهم ما كذبتكم، إن الله عز وجل أرسلني رسولاً، وأمرني أن أعلن فيكم، وفي الناس عامة، لا إله إلا الله، أو كما قال. عند ذلك بهتوا وذهلوا وكأن الأرض تنشق من تحتهم، وكأن السماء تنزل عليهم صاعقة، بل وكأن مكة والدنيا كلها ضاقت عليهم، فما إستطاع أحدٌ منهم أن ينطق ببنت شفة، لكن أبا لهب عبد العزى عمه، والذي أعتق ثويبة جاريته عندما بشرته بمولده، هو الذي لم يستطع أن يسكت. فأشاح بيديه في وجهه، وقال: تباً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟ وإذ بالقرآن الكريم ينزل لاعناً وساخطاً ومتوعداً ومهدداً ﴿تبت يدا أبي لهب وتب۝ ما أغنى عنه ماله

---

(١) سورة الحجر الآية رقم: ٩٤.

وما كسب...﴾ الآيات[1]. ومن إعجاز هذه السورة الكريمة، أن الله قضى عليه بالعذاب، وختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، وحكم عليه بالكفر، ولا يُرجى علاجه، وذلك في قوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾. وكذلك إمرأته أم قبيح حمّالةَ الحطب.. ونصب حمالة على الذم واللعنة، أي ألعن وأذم حمالة الحطب.

وسمى القرآن الكريم النار التي يعذب بها هذا الملعون الكافر البذئ الطاغية ووصفها بأنها ذات لهب، لأنه كني بأبي لهب، وهكذا بدأ الصراع العقائدي. فهذا الصراع ليس شخصياً وليس بين محمدٍ وقريش بل إنه صراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، بين الضلال والهدى.

بدأ المشركون يتفننون في الوسائل المختلفة، بدأوا يلقون بأسلحتهم في وجه النبي الكريم ودعوته، بدأوا بالإغراء وما يُسمى بالدبلوماسية، فأرسلوا إليه أحدهم يقول له: يا محمد.. إن كنت إنما تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك وإن كان الذي يأتيك من الجن أتينا لك بالإطباء حتى تبرأ.

فقال له: أفرغت يا أبا الوليد.. قال: نعم. فقال: إسمع مني وبدأ يتلو عليه آياتٍ من سورة فُصلت: ﴿حم۞ تنزيل من الرحمن الرحيم۞ كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون۞ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾[2]، وتلا عليه ما شاء الله أن يتلو، فانصرف دون أن يتكلم.

فلما حضر إلى قومه، وإلى إخوانه المشركين، رأوه بوجه غير الوجه الذي تركهم عليه، فلما سألوه: ما بك وما لك؟ فقال: لقد سمعت كلاماً عظيماً من محمد، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه، وما هو بقول بشر. فخاب أملهم وظنوا أنه تبع محمداً

---

(١) سورة المسد.

(٢) سورة فصلت الآيات من ١ إلى ٤.

في دعوته، ثم قالوا له بعد أن طمأنهم أنه لا يزال على كفره. فقالوا له: ماذا تقول؟ وماذا تقول في محمد؟ فأخذ يفكر ويفكر ويمعن في التفكير، ثم قال: نقول أنه ساحر.

وتنزل الآيات القرآنية تلعن هذا المفكر الضال.

تقول الآيات القرآنية: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً۞ وجعلت له مالاً ممدوداً۞ وبنين شهوداً۞ ومهدت له تمهيداً۞ ثم يطمع أن أزيد۞ كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سأصليه سقر۞ وما أدراك ما سقر۞ لا تُبقي ولا تذر۞ لواحةٌ للبشر۞ عليها تسعة عشر﴾[1].

ولما سمع أبو جهل الذي كان يدعى ويكنى بأبي الحكم وهو عمرو بن هشام المخزومي لما سمع هذه الآية ﴿عليها تسعة عشر﴾ إستخف قائلاً: عليكم بواحد واتركوا لي الباقي من التسعة عشر، فتنزل الآية الكريمة ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾[2]، وهذا الأمر ليس جديداً عليهم حيث ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذابٌ عظيم.

ونسوا ولم يقدروا أن الله عز وجل حينما أراد إهلاك قوم لوط، بعث جبريل عليه السلام فحمل قرية لوط كلها، بما فيها ومن فيها، حملها على جناح من أجنحته وصعد بها إلى قرب السماء الدنيا، حتى وأن أهل السماء سمعوا صياح دياكهم، ثم رمي بها فأهلكت. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿فجعلنا عاليها سافلها۞ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾[3].

وهكذا يبين القرآن الكريم أن هذا العدد ما هو إلا فتنة للذين كفروا وما هو إلا دليلٌ على إيمان من آمن وأنه ليس المقصود بالعدد بل إنما المقصود بالمعدود.

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١١ إلى ٣٠.

(٢) سورة المدثر الآية رقم: ٣١.

(٣) سورة الحجر الآية رقم: ٧٤.

فلما فشلوا في إغراء محمد عرضوا عليه عرضاً آخر، قالوا: إعبد آلهتنا شهراً ونحن نعبد إلهك شهراً. وهذا مثل آخر على سفههم وعتههم، وضياع عقولهم، تنزل السورة الكريمة: ﴿قُل يا أيها الكافرون۝ لا أعبد ما تعبدون﴾[1]، ويؤكد القرآن الكريم ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾[2]، هذه الآية الكريمة تتكرر مرتين أي لا أنتم عابدون ما أعبد، لا في الحال ولا في الإستقبال، وبهذه السورة حكم عليهم بالكفر حيث لا تقول الآية: قل يا أيها المشركون، لإن هذه الصفة حرموا منها، حيث لا شرك مع الله، بل إيمانٌ أو كفر. فلا يليق أن يقال عن معبوداتهم شركاء، فتلك صفة إن جاز أن تكون، فهي لما كانوا عليه قبل الإيمان وقبل الرسالة، حيث أنهم كانوا يقولون كما حكى القرآن عنهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[3].

فلما فشلوا في أن يصلوا إلى أغراضهم الدنيئة، ولم يفلح سلاح الإغراء توجهوا إلى أبي طالب وطلبوا منه أن ينهى إبن أخيه ويكفه عما هو آتي به، وقالوا له: نعطيك ولداً من أبنائنا قوياً، جلداً، سليماً في الجسم والبنية، واختاروا له عمارة بن الوليد، على أن تعطينا إبن أخيك كي نقتله، فسخر منهم وقال لهم: ويحكم كيف تفكرون؟ تعطونني ولداً أطعمه لكم، وأنتم تأخذون ولدي لتقتلوه.

وذلك بعد أن ذهبوا إليه قبل ذلك في أن ينهى إبن أخيه، فقال أبو طالب: يا مُحمد ابقى عليَّ وعلى نفسك، وكلمه في ذلك، فما كان من الرسول الكريم ﷺ إلا أن قال ودمعه ينزل من عينيه، وهو مدبرٌ عن عمه: والله يا عمُ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

---

(١) سورة الكافرون الآيتين: ١، ٢.

(٢) سورة الكافرون الآية رقم: ٣.

(٣) سورة الزمر الآية رقم: ٣.

عند ذلك تأثر أبو طالب لما رأى إبن أخيه يبكي وتأثر أيضاً لثباته على مبدأه وعلى الحق، وهكذا يكون الرجال، وهكذا يكون الدعاة إلى الله، وإلى الحق، لا يهنون ولا يضعفون، فقال أبو طالب لابن أخيه: إذهب فقل ما شئت، وأحبب من شئت، وابغض من شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، فوالله لا أسلمك إلى بشرٍ أبداً

ولما جاءوا في الثانية وقدموا عمارة لأبي طالب بدل محمد، وزجرهم واستخف بهم واستاء لتفكيرهم. جاءوا في الثالثة وقالوا له:

لقد جئناك مرتين، فلا علينا إن نحن بطشنا بابن أخيك، وراحوا يسلكون سبيلاً آخر وهو إحداث القلاقل في بيت النبي الكريم ﷺ، وذلك أن رقية وأم كلثوم كانتا قد تزوجتا من عتبة وعتيبة، إبني أبي لهب، وكانت زينب الكبرى قد تزوجت من ابن خالتها أبو العاص بن الربيع. فأشاروا عليهم أن يطلقوا البنات كما مر بك سابقاً.

كل هذا وهم يأملون ويظنون أن ذلك يثني محمداً ﷺ، ويشغله عن أمر الدعوة، وكان مما فعلوه المقاطعة التي كتبوها وعلقوها في جوف الكعبة ووقعوا عليها بدمائهم، وكانت تتضمن أن يقاطعوا محمداً وأصحابه مقاطعة كلية، فلا يطعمونهم ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، وأن يخرجوهم من بيوتهم، ليعيشوا في شعب أبي طالب، وهو أحد شعاب مكة.

مقاطعة إقتصادية وإجتماعية، وتحديد إقامة وظلت هذه المقاطعة ثلاث سنين، وخرج النبي الكريم من بيته، وخرجت معه زوجته خديجة، وكانت قد أشرفت على الستين من عمرها، تركت الراحة والبيت والطعام والمال، مع ما تعانيه من الشيخوخة، ومع كل ذلك لم تترك زوجها يخرج وحده، بل شاركته الألم والجوع، ومعها بنتاها الصغيرتان، أم كلثوم الشابة، وفاطمة الصغيرة.

عشنا مع النبي الكريم وذقنا معه ألم الجوع، حتى وأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يصف لنا مشهداً من مشاهد هذا الحصار اللعين.

خرجت ليلة ألتمس شيئاً أضعه في فمي من شدة الجوع فوقعت رجلي على شئ رطب لم أعرف ما هو فأخذته وابتلعته.

ولكن هل كل هذه الوسائل من الإهانة والتعذيب والإغراء، هل أفلحت؟ وهل وصلوا إلى ما يبغون؟ اللهم لا وألف لا.

وبعد ثلاث سنين ثار بعضهم على هذه المقاطعة، وقالوا كيف نطعم الطعام؟ وكيف نأتي النساء؟ وكيف ننام في بيوتنا، وعشائرنا وأهلنا يعانون من شدة الجوع؟ وكأنهم يأسوا مما فعلوا، وقال النبي الكريم ﷺ لعمه أبي طالب: اخبرهم أن الأرضة أكلت الصحيفة ولم يبقى منها إلا «باسمك اللهم»، فكلمهم أبو طالب في ذلك وقال لهم: إئتوا بالصحيفة فإن وجدتموها صحيحة فظلوا واثبتوا على ما أنتم عليه، وإن كان كلام ابن أخي صادقاً، فإن الله يكون قد كفاه عنكم. فلما أتوا بالصحيفة بل ببقاياها، علموا أنه على حق، وأن السماء وعناية الله عز وجل، تدافع عنه.

رجعوا وتراجعوا، وعاد النبي الكريم ﷺ وصحبه وذووهم إلى بيوتهم، لكن الحياة لم تمهل أبا طالب، فهلك وتوفي في إثر ذلك، وتوفيت خديجة بعده بثلاثة أيام، ولم تشهد جنازته ووفاته لمرضها بتأثرها من الشيخوخة، ومن الحصار.

وعند وفاتها نزل جبريل عليه السلام، وقال: «يا محمد أقْرِأ خديجة مني السلام، وأقْرِأها من ربها السلام، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا نصب فيه ولا صخب».

وقد وقف العلماء أمام هذه العبارات البليغة، فوقفوا عند كلمة «بيت» بدل «قصر» وقالوا: إن التعبير بالبيت كناية عن القصر، ذلك لإن بيت خديجة كان البيت الذي حمى محمداً، وكان فيه راحته واستقراره، واستقبل هذا البيت الدعوة الإسلامية وكان أول بيت يسعد بذلك، فأبدلها الله بيتاً خيراً منه في الجنة.

ووقفوا عند كلمة «قصب» وهو كناية عن الذهب، وجاءت العبارة بالقصب لأمرين:-

أولهما: أن القصب يمتاز بالإستقامة، فلا يكون عوده معوجاً، وكانت خديجة مثلاً في الإستقامة والطاعة لزوجها قبل الرسالة، والإستقامة والطاعة لربها بعد الرسالة، فكانت أول من دان بالحق.

الثاني: أن القصب له حلاوة، وأن خديجة رضي الله عنها كانت أول من ذاق حلاوة الإيمان.

ووقفوا عند كلمة «لا نصبَ فيه ولا صخب» أي لا تعب فيه ولا أصوات مزعجة، وذلك لإنها لم تُتعب زوجها، ولم تعكر عليه صفو حياته، بل كانت البلسم والدواء والسكينة، ولم ترفع صوتها على صوته، وسعدت خديجة بهذه البشرى، وسعدت بلقاء ربها في اليوم العاشر من رمضان من السنة العاشرة للبعثة وصلى عليها النبي الكريم ﷺ، وثويت في قبرها بمنطقة في مكة تُسمى الحجون.

هكذا نرى بعض ما حدث للنبي الكريم ﷺ من أعداء الإسلام، ولضيق المقام نكتفي بما ذكرناه لعله يكون فيه النفع لمن يدعو إلى الله، ويكون شعاره قول الله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[1]. وبعدما هاجر النبي الكريم ﷺ متخفياً هو وصحبه الكرام كان النصر، وكانت الغلبة للحق والإيمان ولله ورسوله ﷺ والإسلام، ﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾[2].

والقرآن الكريم خير شاهدٍ وخير دليل وخير برهان، على ما ذكرنا من نصر الحق على الباطل مهما كان الحق ضعيفاً والباطل قوياً فإن الحق هو الذي يسود، وكما قيل: الحق أبلج، والباطل لجلج.

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ١٠٨.

(٢) سورة الأنفال الآية رقم: ١٠.

الفصل الحادي العشرون

في بيان مقاصد القرآن الكريم
من ذكر أنباء الرسل

فالقرآن الكريم من مقاصده السامية ذكر انباء الرسل السابقين عليهم السلام مع أقوامهم والغاية من ذكر تلك القصص العظيمة المباركة من وجوه ثلاثة:-

الوجه الأول:- العبرة للنبي الكريم ﷺ ولكل من يدعو إلى الله على بصيرة حتى يثبت على الحق.

الوجه الثاني:- تصديق الرسل وأنهم بلغوا منهج الله لأقوامهم.

الوجه الثالث:- الشهادة يوم القيامة على من كذّب هؤلاء الرسل والشهادة للرسل بأنهم بلغوا.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2]، ويقول عز من قائل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[3].

وفي هذا المقام نذكر ثلاثة من هؤلاء الرسل وهم: داود وسليمان ويوسف عليهم السلام.

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ٣.

(٢) سورة يوسف الآية رقم: ١١١.

(٣) سورة البقرة الآية رقم: ١٤٣.

وقد اخترنا أو تخيرنا الحديث عن هؤلاء الرسل الثلاثة لأن الله تبارك وتعالى جمع لهم بين النبوة والحكم. فداود وسليمان عليهما السلام كانا نبيين ملكين، ويوسف عليه السلام كان نبياً ووزيراً.

الفصل الثاني والعشرون

في ذكر طرف من قصة داود عليه السلام

فماذا عن داود عليه السلام؟

أما نسبه فهو داود بن إيشا بن عويد بن يهوذا من نسل يعقوب، وقد ذكر القرآن الكريم قصة داود في أكثر من موضع، من ذلك ما جاء في سورة سبأ قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد۞ أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾[1].

فهاتان الآيتان الكريمتان اشتملت الآية الأولى منهما على بعض المعجزات التي أختص الله بها نبيه داود عليه السلام، حيث بدأت بلام التوكيد، لام القسم وقد الذي هو حرف تحقيق، ثم يبين الحق تبارك وتعالى أنه أمتن على عبده ونبيه داود بالفضل ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾. ثم يقول الحق تبارك وتعالى ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾، فهذه معجزة، وهي أن الله تبارك وتعالى سخر الجبال والطير تسبح مع داود وتستغفر وتذكر الله عز وجل كلما ذكر داود ربه وسبحه واستغفر فيكون للجبال والطير صوت ونغم له جماله وجلاله وكماله ووقاره، وإن كانت الجبال والطير مسبحات لله عز وجل في كل وقت، حيث يقول جل وعلا: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾[2]. إلا أن المعجزة هنا هي أن داود كان يسمع تسبيح الجبال والطير، أما نبينا محمد ﷺ فقد سمع أصحابه تسبيح الحصى في يده الشريفة.

---

(١) سورة سبأ الآيتين: ١٠، ١١.

(٢) سورة الإسراء الآية رقم: ٤٤.

أما المعجزة الثانية في قوله: ﴿وألنا له الحديد﴾، حيث كان داود عليه السلام إذا أمسك بقطعة من الحديد لانت وذابت في يديه عليه السلام، وهكذا جمع الله له بين الرسالة والحكم والقوة البدنية.

ثم أمره بالعمل فقال تعالى: ﴿أن اعمل سابغاتٍ﴾ أي! ضع الدروع السابغات أي التي تغطي ما تحتها وتفيض، يقال: سبغ الثوب والدرع إذا غطى ما تحته وكمل، ثم يقول سبحانه: ﴿وقدر في السرد﴾، وقدّر من التقدير، أي أحكم الدرع بحيث يكون خفيفاً واقياً، والسرد هي الحلق المتصلة.

ثم أمر سبحانه آل داود فقال: ﴿واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾ أي لا تغشوا ولا تدلسوا في العمل فإن الله بصير بكل شيء رقيب على كل شيء، وفي آية أخرى: ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ [1].

والمتأمل في هاتين الآيتين يجد أن العمل الذي أحله الله شرف وعبادة، فهذا هو نبي الله داود عليه السلام مع أن الله عز وجل آتاه العلم والحكمة وجعله نبياً ملكاً، فإنه كان يعمل حداداً، كما كان آدم زارعاً، ونوح نجار، وإدريس خياط، وسليمان عليهم السلام كان خواصاً، حيث كان يضفر الخوص، ويصنع منه المكاتل، ولذلك فإن نبينا محمداً صلوات الله عليه وسلامه يقول في حديثه الشريف: «ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» فالنبي الكريم ﷺ ضرب المثل بداود، لأنه كان نبياً ملكاً، أي أنه كان غير محتاج إلى العمل، ومع ذلك فإن الله أمره بالعمل، وأمره بعمل قد يأنفه بعض الناس، ألا وهو العمل بالحدادة.

والخلاصة أن أي عمل شريف حلال ليس فيه أثم فإنه يكون عبادة، بل قد يكون من أجل العبادات، فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر، فأننا نذكر قول الله عز وجل: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب۝ إنا

---

(١) سورة سبأ الآية رقم: ١٣.

سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق۞ والطير محشورة كلاً له أواب۞ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب۞ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب۞ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط۞ إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب۞ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب۞ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[1]. وقبل أن نوجز ما جاء في هذه الآيات نورد معاني المفردات.

ذا الأيد: صاحب القوة والجلد، حيث جمع الله له بين قوة اليدين والدين والجند، إنه أواب: كثير التوبة والرجوع إلى الله، يُسبحن بالعشي والإشراق: أي في وقت العشاء وصلاة الضحى، والطير محشورة: مجموعة، وشددنا ملكه: قويناه حتى ثبت، الحكمة: بمعنى النبوة والعدل، فصل الخطاب: البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقد روي أنه أول من قال: أما بعد ليفصل بين المقدمة والكلام الذي بعدها، وهل أتاك: أي قد أتاك، لأن حرف الاستفهام هل يكون بمعنى قد كما في هذه الآية، ويكون بمعنى ما النافية، نحو قوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾[2]، ويكون بمعنى الأمر نحو قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿فهل أنتم منتهون﴾[3]، أي انتهوا، ويكون بمعنى الاستفهام المحض نحو قوله تعالى: ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾[4]، نبأ الخصم: النبأ هو الخبر الهام وما سواه فهو خبر، الخصم: المتخاصمين ويُطلق على الواحد فتقول هذا

(١) سورة ص الآيات من ١٧ إلى ٢٥.

(٢) سورة الرحمن الآية رقم: ٦٠.

(٣) سورة المائدة الآية رقم: ٩١.

(٤) سورة الأعراف الآية رقم: ٤٤.

خصماً، والجمع فتقول هؤلاء خصم والذكر والأنثى والمثنى، ويطلق على المثنى قال الله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾[1]، قوله تعالى: ﴿إذ تسوروا المحراب﴾، تسوروا: أتوا من أعلى السور وضمير الجمع يدل على أن أقل الجماعة اثنان، المحراب: قيل هو الغرفة أو صدر المجلس، ومنه محراب المسجد، ففزع منهم: خاف منهم، ولا تشطط: لا تَجُر ولا تَمِل، فقال اكفلنيها: أي انزل لي عنها حتى أكفلها والمراد أعطنيها، وعزني: أي غلبني، الخلطاء: جمع خليط وهم الشركاء، فتناه: ابتليناه من الاختبار، خر راكعاً: أي ساجداً، لزلفى: لقربة إلى الله بالمغفرة، وحسن مآب: وحسن رجوع إلى الله.

فهذه الآيات الكريمة تجمع صفات عشر أختص الله بها نبيه داود عليه السلام.

– الصفة الأولى: الصبر قوله تعالى: ﴿أصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود﴾ أي في صبره على الجهاد في سبيل الله وكما أن الله نصره سينصرك.

– الصفة الثانية: القوة في البدن والحكم والجند قوله تعالى: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾.

– الصفة الثالثة: كثرة الإنابة والرجوع إلى الله عز وجل قوله تعالى: ﴿إنه أواب﴾.

– الصفة الرابعة: تسبيح الجبال معه قوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾.

– الصفة الخامسة: تسبيح الطير وجمعه مصفوفاً في قوله تعالى: ﴿والطير محشورة كل له أواب﴾.

– الصفة السادسة: قوة الملك في قوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه﴾.

---

(١) سورة الحج الآية رقم: ١٩.

– الصفة السابعة: تقويته بالحجة وتوفيقه إلى الحق قوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكمة﴾.

– الصفة الثامنة: تقوية الله له بتوفيقه إلى حسن البيان قوله تعالى: ﴿وفصل الخطاب﴾.

– الصفة التاسعة: أن الله عز وجل ألان له الحديد في قوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾.

– الصفة العاشرة: تشريفه بالعمل قوله تعالى: ﴿أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾.

وقبل أن نذكر قصة نبأ الخصم نود أن نذكر بدء قصة داود عليه السلام، حيث بدأت قصته المباركة بأن طالوت، وكان ملكاً على بني إسرائيل، كان قد خرج لقتال جالوت، وكان جباراً ظالماً، وخرج مع طالوت ثمانون ألفاً وثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، وكان منهم أبو داود وأبناؤه الثلاثة عشر، وكان داود أصغرهم سناً، فكلم داود أحجار ثلاثة، وقلن له: خذنا معك، تقتل بنا جالوت، فأخذهن داود ووضعهن في قوسه، فكن حجراً واحداً، ولم يثبت مع طالوت إلا الثلاث مئة والثلاثة عشر رجلاً، فسمي داود ربه، وضرب جالوت بين عينيه فقتله، وبهذا سار داود ملكاً على قوم جالوت بعد قتله.

وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم فيقول: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ۝ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾[1].

ولعل قائلاً يقول: ما هي المناسبة بين قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿اصبر على ما يقولون﴾، وبين قوله تعالى: ﴿واذكر عبدنا داود﴾، والجواب

---

(١) سورة البقرة الآيتان: ٢٤٩ – ٢٥٠.

والله أعلم أن الله عز وجل يذكر نبيه ﷺ بداود وكأنه يقول له: اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود كيف جاهد وناضل في سبيل الحق؟ وثبت على الحق، وكيف انتصر على جالوت وصار له الدولة والحكم؟ فكما نصر على جالوت ننصرك على أعدائك وتعود إلى مكة فاتحاً منتصراً.

وبعد فماذا عن قصة نبأ الخصم؟

لقد ورد فيها روايات كثيرة، منها صحيح، ومنها متقولٌ هراءٌ لا يصح أن نذكره، بل لا نبيح لأنفسنا ولا لغيرنا ذكره، لأنه يتنافى مع مقام وجلال وكمال النبوة.

وداود عليه السلام من الرسل الذين كرمهم الله واصطفاهم من خيرة خلقه، ولنذكر ما صح أو ما هو قريبٌ إلى الصواب، ومجمل ما قيل في ذلك أنه عليه السلام كان قد رأى إمراةً فأعجب بها، وهذا الإعجاب لا يتنافى مع مقام النبوة، فإنه وإن كان نبياً ورسولاً فهو بشر يباح له ما يباح للبشر، والبشر له قلب، والقلب غير جامد فإن القلب من خصائصه أن يهوى هوىً مباح لا يؤدي إلى معصية، أعجب داود بهذه المرأة، وكانت مخطوبة لرجل من قومه يقال له: أرويا أو كان زوجاً لها، وسواء كانت مخطوبةٌ له أو زوجة فإن هذا أيضاً أو ذاك لا يقدح في خلق النبي الكريم داود، فلقد صح عن الأنصار رضي الله عنهم، أنهم لما هاجر إليهم إخوانهم المهاجرون من مكة، وآخى الرسول بينهم، كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر ليقاسمه ماله، ويكون قسمة بينهما، بل وكان يعرض عليه زوجتيه إن كان له أكثر من زوجة، ويخيره بينهما ليطلقها له فيتزوجها، فقد خطب داود عليه السلام هذه المرأة، وكان له تسع وتسعون إمرأة بين زوجات وإماء، فعاتبه الله على ذلك، فإنه وإن سلك مسلكاً مباحاً وطريقاً جائزاً، إلا أنه لكونه نبياً ورسولاً ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك، فذلك وإن كان مباحاً للبشر إلا أن مقام النبوة أرفع من أن يفعل داود هذه الفعلة.

يخطب إمرأة مخطوبة أو متزوجة. وعنده من النساء ما يكفيه. ، ذلك كما يقول أهل العمل من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، لكن كيف كان هذا العتاب؟ هل بعث الله إليه جبريل عليه السلام ليعاتبه في ذلك؟ لا، إن الله تبارك وتعالى يعلمنا ويوجهنا في هذه القصة كيف يكون العتاب؟ وكيف يكون التوجيه؟ لأن المعاتب مهما تقبل العتاب فإنه في نفسه يشعر بالتقصير، ويشعر بشيءٍ من الإهانة النفسية خصوصاً وإن كان رسولاً مثل داود عليه السلام، فهناك فرق بين النصيحة والفضيحة، يُعلمنا القرآن الكريم كيفية العتاب الصحيحة، فهاهما ملكان ينزلان في صورة رجلين، ويتسوران على داود محرابه، لماذا؟

حتى يشعر أنهما ملكان لم يقتحما عليه خلوته من باب الهجوم ولكن ليعلم أنهما ملكان وأنهما مكلفان من الله عز وجل، ولذلك كما يصور القرآن الكريم ﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم﴾ لأنهما جاءا مجيئ على غير المألوف فهما يطمئنانه ويقولان له: ﴿لا تخف﴾ ثم يقول أحدهما: ﴿نحن خصمان بغى واعتدى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط﴾ أي لا تجر ولا تُمِل ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾، وإن كان الملكان لا يشكان في عدل داود، وحاشاه أن يظلم لكن كما قلت أن القصة فيها توجيه وتعليم للأمة، ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾، أي إلى طريق عدل صحيح.

ويعرض أحدهما القضية فيقول: ﴿إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة﴾ ولنتأمل كيف عبر الملك عن المرأة بالنعجة، حتى لا يشعر داود بطريق مباشر أن الكلام موجه إليه وهذا ما يُسمى في علم البلاغة بإسلوب الحكيم، وعودٌ إلى إستكمال القضية:

﴿إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة﴾ والتعبير بكلمة أخي هنا تعني الإخوة في العبادة، لأن الملائكة لا يتناسلون، أي ليس بينهم أخوة نسب، وكذلك تعني هذه الكلمة الأخوة في الله بين داود وبين هذا الرجل الذي خطب أو تزوج مخطوبته أو زوجته فقال: ﴿أكفلنيها﴾، أي أعطنيها وأنزل لي عنها،

﴿وعزني﴾ أي غلبني في الخطاب، فما كان من داود عليه السلام إلا أن قال مجيباً هذا القائل: ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ إلى أن قال: ﴿وقليلٌ ما هم﴾، ولسائلٍ يسأل: كيف يجيب داود دون أن يسمع كلام الطرف الآخر؟ وهنا يحتمل أمران:—

الأول: هو أن داود يكون قد سأل الثاني فأقر، والقرآن الكريم تجنب ما قيل إختصاراً لأن المهم الوصول إلى قول داود وحكمه.

الثاني: هو ربما رأى داود أن المشكو في حقه لم يدافع عن نفسه، فرأى أن سكوته إقرار.

كل ذلك ولم يفطن داود عليه السلام أن الأمر متعلق وخاص به، فما كان من الملكين إلا أن نظر أحدهما إلى الآخر وتبسما، وصعدا من حيث أتيا، عند ذلك فطن داود أنهما ملكان لأن غدوهما ورواحهما كان على غير المألوف فهما ليسا من البشر، وبالتالي فالقضية لا تخصهما، لأن الملائكة منزهون عن التناسل، والقرآن الكريم يُعبر عن ذلك فيقول: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾، اي أيقن وعلم وتأكد وجاء التعبير بالظن لأن ظن الأنبياء والأصفياء يقين، فإذا كان الظن عند البشر قريباً من العلم، فإن الظن في حق الأنبياء يقين.

يقول تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه﴾[1]، اي فعلم وأيقن ألن نضيق عليه، ويقول سبحانه: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين۝ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾[2].

وظن داود أي علم وأيقن أنما فتناه، أي إبتليناه واختبرناه، لأنه لما ذُكِرَ أمامه، وقال قومه له: هل يمكن لعبد ألا يُذنب، أجابهم: نعم، أنا، وكان ينبغي أن يقول: الله أعلم، فابتلاه الله واختبره بهذه القصة وبالنظر إلى المرأة المخطوبة وكان لا ينبغي أن ينظر إليها أصلاً.

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم: ٨٧.

(٢) سورة البقرة الآيتين: ٤٥، ٤٦.

فلما علم داود أن الله عز وجل إختبره وابتلاه بهذا الحدث، وأيقن أنه قد أخطأ، لأنه فعل شيئاً كان ينبغي أن يترفع عنه، إستغفر ربه وتاب إليه، فغفر الله له، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾، وما ذكرناه قريب إلى الصواب والحق وتجنبنا ما سواه من الأقوال التي تتنافى مع مقام وكمال النبوة، تجنبنا هذه الأقوال لأمور:

أولها: أن الأنبياء ليسوا محتاجين إلى دفاعنا، ويكفيهم شرفاً وفخراً أن الله طهرهم وزكاهم من كل نقيصة ورذيلة.

ثانياً: أن هذه الأقوال الكاذبة المفتراة المنقولة لا يصح لنا أن نهتم بها ونذكرها.

ثالثاً: أن الله تبارك وتعالى تحدث عن المتقين من عباده حيث يقول عز من قائل: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[1]، فإذا كان هذا هو حال المتقين، وأنهم بمجرد أن يحدثهم الشيطان ويلقي في خواطرهم شيئاً غير مباح، فإنهم يتذكرون، وسرعان ما يعودون إلى صوابهم ويرجعون إلى الحق. فكيف يكون حال الأنبياء؟ ودواد عليه السلام إختصه الله بخاصية لم يختص بها نبياً قبله، حيث يقول سبحانه: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾[2]، فالمؤمن يتدبر هذه الآية الكريمة وكيف أن الله عز وجل أشار إلى أنبيائه بالوحي ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم...﴾ الآية، ثم يقول سبحانه: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾، يتأمل المؤمن الفرق بين ﴿وأوحينا﴾ وبين ﴿وآتينا﴾، أي أن داود عليه السلام ألقي

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم: ٨٧.

(٢) سورة النساء الآية رقم: ١٦٣.

الزبور في روعه، أي في قلبه، ولم ينزل الزبور على داود بواسطة جبريل عليه السلام.

فهذا النبي الرسول المؤيد من ربه، والذي أُلقي الوحي في روعه وصدره من غير واسطة، لا يُمكن أن يُترك للهوى والشيطان، ولا يُمكن أن يقع في حبائل المعاصي.

وإذا كان لنا من ختام لهذه القصة، فإننا نضرع إلى الله العلي القدير أن يأخذ لهذا النبي الكريم حقه يوم القيامة، ولإخوانه من الأنبياء، ممن أدعوا العلم، وظنوا أنهم علماء، وأباحوا لأنفسهم، وأباحوا لألسنتهم أن تتكلم وتتقول على سادتهم، بل وسادة أهل الأرض جميعاً، يخوضون في أعراضهم، ويتكلمون ويهرفون، وهم لا يعرفون، فهناك يوم ﴿لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون ۝ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1]، ﴿يوم يفر المرء من أخيه ۝ وأمه وأبيه ۝ وصاحبته وبنيه ۝ لكل امرأ منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾[2]، وفي هذا اليوم يوم القصاص والعدل والحق، فإن هؤلاء الصفوة المختارة يحاجون من ظلمهم وخاضوا في أعراضهم، وتقولوا عليهم، وهؤلاء الكذابون يتبرمون ويتحسرون، ولات ساعة مندم، فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين، وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير، وهو خير الحاكمين.

---

(١) سورة الشعراء الآيتين: ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة عبس الآيات من ٣٤ إلى ٣٧.

الفصل الثالث والعشرون

ذكر ما جاء في قصة سليمان عليه السلام

قال تعالى في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب۞ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد۞ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب۞ ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق۞ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب۞ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب۞ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص۞ وآخرين مقرنين في الأصفاد۞ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب۞ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [1].

معاني المفردات:

الصافنات: القائمات، والصافن من الخيل هو الذي يقف على مقدم حافره، الجياد: جمع جواد وهو الذي يجود، أي يسرع في الشيء بخفة، توارت: أي اختفت الشمس، بالحجاب: بالحجب وقيل بالغروب، فطفق مسحاً: أي ضرباً، بالسوق والأعناق: سيقان الخيل ورقابها، تجري بأمره رخاءً: أي الريح تجري لينة سريعة، حيث أصاب: أي حيث أراد، الشياطين كل بناء: أي عامل في البناء، وغواص: أي يغوصون في البحر، وآخرين مقرنين في الأصفاد: أي مقيدين في السلاسل والأغلال.

هذه الآيات الكريمة من سورة ص جاءت بعد ذكر قصة داود عليه السلام، فسليمان هو ابن داود عليهما السلام، وقد ورث الملك من أبيه، فهو نبيٌّ ملك ابن نبي ملك، والله عز وجل ذكر في قرآنه ذلك حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾، إلا أن نبي الله سليمان زاده الله ملكاً على

---

(١) سورة ص الآيات من ٣٠ إلى ٤٠.

ملك أبيه على ما يأتي بيانه فيما بعد، ومما اختص الله به عبده سليمان أنه رزقه الفطنة في قصة الحرث، والتي أشار القرآن الكريم إليها في سورة الأنبياء، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين۝ ففهمناها سليمان وكلاً أتينا حكماً وعلماً﴾[1]. ومجمل هذه القصة أن رجلاً كان له حرثٌ، ورجلاً كان عنده غنم، فدخلت الغنم في الحرث، وأكلت وأتلفت بعض المزروعات، وشكا صاحب الزرع صاحب الغنم لداود عليه السلام، فحكم داود عليه السلام بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم عقاباً له على ما حدث من غنمه، فقال سليمان لأبيه: يا أبت إن لي رأياً في هذه القضية، قال: وما هو؟ قال سليمان: أرى أن يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بألبانها، وعلى صاحب الغنم أن يُصلح له زرعه، فإذا ما تم إصلاح الزرع أخذ صاحب الغنم غنمه.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾، وهذه القصة تعطينا درساً بليغاً في إحقاق الحق، فإن داود عليه السلام لم يعترض على ولده، ولم ينكر عليه أن يقول رأيه مع حداثة سنه، وكذا لم يجد داود غضاضة في أن يتنازل عن رأيه وهو الأب، وهو الملك، وقد ذكر المفسرون قصة تشبه تلك القصة، وهي أن امرأة كان لها ولد صغير، فتركته أمانة عند امرأة أخرى، فلما جاءت الأم تطلب ولدها من هذه المرأة، أنكرت المرأة ذلك وإدعت أنه ولدها، فاحتكما إلى داود، وكانت المرأة المدعية لها قوة تأثير على داود حيث بالغت في البكاء، مما جعل داود عليه السلام يحكم لها أن تأخذ الولد، فقال سليمان لأبيه: إن لي رأياً آخر وهو أن تقول للمرأتين إني أذبح هذا الولد، وكل منكما يأخذ نصفه، فلما قال داود ذلك للمرأتين، صرخت أمه صرخة شديدة، حتى فزع منها داود، قائلة: أتذبح ولدي، ولم تتأثر الأخرى بما سمعت، فحكم داود للأم وعاقب المدعية الكاذبة، وعودٌ إلى ما جاء في آيات سورة ص، فإن الله عز وجل يقول:

---

(١) سورة الأنبياء الآيتين: ٧٨، ٧٩.

﴿ووهبنا لداود سليمان﴾، فتلك إشارةٌ إلى نعمة أخرى أنعم الله بها على نبيه داود، وما أعطاه من ملك، وما أيده به من معجزات، أن زاده ووهبه سليمان، وتلك إشارةٌ أخرى إلى أن نعمة الأولاد إنما هي هبةٌ ومنحةٌ ومنةٌ من الله تعالى حيث يقول سبحانه: ﴿ولله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور۞ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير﴾[1]، فبين سبحانه وتعالى أنه مالك كل شئ، وأنه لا ينازعه في ملكه أحد وأنه لا يُسأل عما يفعل وأنه يخلق ما يشاء وأعطانا مثلاً حياً فينا على ذلك، فهو سبحانه وتعالى يهب لمن يشاء من الأزواج إناثاً، ومن الأنبياء من رزق الإناث فقط، ومنهم لوط وشعيب عليهم السلام، وأنه يهب لمن يشاء الذكور، ومن الأنبياء الذين رزقوا ذكوراً فقط إبراهيم عليه السلام، وأنه سبحانه وتعالى قد يهب لمن يشاء الذكور والإناث، ومن الأنبياء من رزقوا الذكور والإناث خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأنه سبحانه وتعالى يجعل من يشاء عقيماً، ومن الأنبياء الذين لم يوهبوا الأولاد سيدنا عيسى ويحيى عليهما السلام، وتختتم الآيات بقوله تعالى: ﴿إنه عليم قدير﴾، أي أنه سبحانه وتعالى يهب عباده ما يشاء وذلك إنما عن علم بما فيه مصلحتهم، فهو العليم بذلك، وعن قدرة فهو القدير على ذلك، وهو على كل شئ قدير.

وقد وصف الله عز وجل نبيه سليمان عليه السلام بصفتين عظيمتين، قوله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾، المتكلم هو الله عز وجل فهاتان شهادتان إلهيتان أكرم الله بهما نبيه سليمان.

أولاهما: العبودية، وصفه بقوله: ﴿نعم العبد﴾.

---

(١) سورة الشورى الآيتين: ٤٩، ٥٠.

الثانية: الأوبة أو التأديب، وهو الرجوع إلى الله عز وجل، حيث يقول سبحانه: ﴿إنه أواب﴾، صفة مبالغة إي رجاع وتواب، وكيف لا يكون كذلك، وهو إبن داود الذي ذكره الله في قرآنه في الآيات السابقة: ﴿إصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيدي إنه أواب﴾، فسليمان أوّاب ابن أوّاب، وجده نوح عليه السلام، والذي وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾.

وقد تعرض نبي الله سليمان لإختبارين في حياته:

الأول: سببه الخيل، حيث يقول الله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد﴾، حيث كان ملكاً، وهذه الخيول عرضت عليه من قبيل الإستطلاع والإطمئنان على القوات الموجودة عنده، وليس على سبيل اللهو أو التفاخر أو المباهاة، وهذا التفسير يتناسب مع مقام النبوة وجلالها، فليس سليمان ولا مثله من الأنبياء الذين يلهون بالدنيا، وظل هذا العرض إلى أن غابت الشمس، ولم يصلِ سليمان عليه السلام صلاة العصر، والتي كانت مشروعةً له ولقومه آنذاك، فلما رأى الشمس غابت ندم على فوات صلاة العصر، وقال: ﴿إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾، وتعبيره بالحب في الآية لا يراد به الميل، ولكن يراد به اللهو عن الصلاة، أي ألهيت ونسيت بهذا الخير عن ذكر ربي، ودعا الله عز وجل أن يرد إليه الشمس حتى يصلي العصر في وقته، وذكر بعض المفسرين أن الله عز وجل إستجاب دعائه، وعادت الشمس وصلى، وإن كان ذلك كذلك فإن هذه الإجابة إنما تكون آية على مغفرة الله له وقبول توبته، ثم قال: ﴿ردوها علي﴾، أي الخيل ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾، والقرآن الكريم يعبر بكلمة مسحاً، ولم يقل ضرباً، لأن كلمة المسح يجوز فيها الأمران، بمعنى المسح المعروف، وأنه مسح على سيقانها وأعناقها شكراً لله على ما أنعم عليه به من الخير، بعد أن إستجاب دعائه، ورد إليه الشمس ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾، وكأنه يطلب

الصفح من الخيل التي كان قد غضب منها لأنها كانت السبب في فواته الصلاة، أو طفق مسحاً، أي قطعاً، أي قطع سيقانها وأعناقها، وأنفق لحمها في سبيل الله، حيث كان أكلها جائزاً في شريعتهم، هذا هو الإختبار الأول.

أما الإختبار الثاني: فهو ما يُشير إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾.

تكلم المفسرون والمحدثون في هذا كلاماً كثيراً، منها ما هو من الإسرائيليات، ومنها ما هو قريب من الصواب. ونحن نتجنب سرد هذه الأقوال حذراً من التشكيك حيث أن المقام مقام النبوة والعصمة فنختار ما روي عن مولانا رسول الله ﷺ أنه قال ما معناه: أن سليمان عليه السلام كان تحته سبعون إمرأة فقال: لأطوفن الليلة على نسائي فتلد كل واحدة منهن فارساً يجاهد في سبيل الله، ولم يستثني، أي لم يقدم المشيئة، فطاف عليهن جميعاً، فلم تلد منهن إلا واحدة، ولدت شق ذكر، فقال النبي الكريم ﷺ: لو أن سليمان قال: إن شاء الله لولدت نسائه كلهن من يجاهد في سبيل الله، فتلك هي الفتنة وهي ترك المشيئة، أما الجسد الذي أُلقي على كرسيه، فخير ما قيل فيه أنه هو سليمان ذاته، أي إبتلاه الله وعاتبه بأن كان يجلس على كرسيه جسداً بلا روح، يعني أنه كان مقيد الحركة لا يتصرف التصريف العادي، تصريف مَلِك يقوم على مُلْك، فلما رأى سليمان ذلك، وعلم أنه أخطأ، أناب إلى ربه، وتاب إليه وإستغفر، وقال: ﴿رب اغفر لي، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب﴾، طلب هذا الملك ليكون آيةً له أيضاً على قبول التوبة.

وفي هذا المقام سؤال: وهو هل هبة المال والملك من الله تعالى للعبد، دليل على حب الله له؟ وهل منعه المال والملك آية على السخط، وإذا كان ليس كذلك، فلما طلب سليمان الملك؟

والجواب: هو أن الملك والمال وسعة الرزق ليست دليلاً على حب الله، وأن منع ذلك ليس دليلاً على سخط الله للعبد، فإن الله عز وجل يقول في قرآنه

الكريم: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول رب أكرمن۝ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول رب أهانن۝ كلا بل لا تكرمون اليتيم۝ ولا تحاضون على طعام المسكين۝ وتأكلون التراث أكلاً لما۝ وتحبون المال حباً جماً﴾[1].

وفي الحديث النبوي الشريف: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء»، أما طلب سليمان الملك، فإنه طلب الملك بعد المغفرة، قال: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾، وسليمان عليه السلام نبيٌّ، والأنبياء مصطفون، فكان طلبه الملك كما أشرنا إلى ذلك آية من الله عز وجل على مغفرته له، وقبوله توبته، وهنا ملحظ لابد وأن نتأمله، وهو أن الملك الذي طلبه سليمان فوق الملك الذي كان قد ورثه من أبيه داود عليه السلام، فقد ورث سليمان ملك أبيه بعد وفاته، وكان عمره ثلاث عشرة سنة، وليس هذا غريباً، فإن الله عز وجل قد وهب سليمان الفطنة، وأتاه رشده العقلي قبل أن يبلغ الحلم، بدليل أنه حاور أباه في قضيتي الحرث والمراتين، فلا غرو أن يكون سليمان ملكاً في حداثة سنه بعد وفاة أبيه.

وداود إسم أعجمي وسليمان إسم عبراني، فلما فتن سليمان بما ابتلاه الله به، ودعا ربه أن يغفر له، وأن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، زاده الله ملكاً على ملكه، حيث قال سبحانه: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿هذا عطائنا فأمنن أو أمسك بغير حساب﴾، خيّره الله عز وجل بين أن يمن بعطائه على الخلق أو يمسك عنهم من غير مسائلة، وتلك خصوصية لسليمان عليه السلام.

لأن الله يعلم أن سليمان لن يُمسك لأنه نبي والإمساك والتقتير والبخل ليس من أخلاق الأنبياء، هذا في العطاء والملك في الدنيا، ثم زاده الله عطاءً فوق

---

(١) سورة الفجر الآيات من ١٤ إلى ١٩.

ذلك وأفضل من ذلك، فقال: ﴿وإن له عندنا﴾، أي في الآخرة، ﴿لزلفى﴾، أي لقربى، ﴿وحسن مآب﴾، أي مرجع، وقد ذكر العلماء في ملك سليمان أنه كان عسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون للأنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير، أي من زجاج، وكان لا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت به الريح إلى سمعه حتى يعلم أخبار الرعية، فالريح بمثابة المخابرات السرية، فلما أكرمه الله بهذا الملك، وخيره بين المن والإمساك، ولما كان الإمساك ليس من ديدن الأنبياء، أي أخلاقهم، شكر الله على هذا العطاء، وعلى هذا الملك بأن وظفه وسخره في ما ينفع الناس فكان يطعم كل يومٍ مائة ألف، فإن قل أطعم ستين ألفاً، وكان يذبح كل يوم مائة ألف شاة، وثلاثين ألف بقرة، لكن كيف كان يطعم الناس؟ من أي خبز كان يطعمهم؟ ومن أي خبزٍ كان يطعم أهله؟ ومن أي خبز كان يأكل هو؟

أما إطعامه الناس فكان من الدقيق الفاخر، أجل ليس هذا غريباً عليه وهو نبي، وهذا الخلق الكريم أوصانا الله به في كتابه الكريم: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[1]. وكانت فاطمة رضي الله عنها بنت النبي الكريم ﷺ تُطيب الصدقة قبل أن تعطيها للفقير، فلما سألها النبي الكريم ﷺ عن ذلك قالت: «إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل، قبل أن تقع في يد الفقير»، فقبلها النبي الكريم ﷺ بين عينيها، وقال: ﴿ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾[2].

كان سليمان عليه السلام يطعم الناس من أجود الدقيق، ويطعم أهله من الدقيق غير الجيد، وهو ما يُعرف بالخشكار، أما هو فكان يأكل من الشعير.

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم: ٩٢.

(٢) سورة آل عمران الآية رقم: ٧٤.

وإذا كان سليمان عليه السلام قد طلب من ربه أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وإذا كان الله عز وجل قد استجاب له دعائه، فإن سليمان قد دعا بدعوته، حيث يقول النبي الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: «لكل نبيٍ دعوة وإدخرت دعوتي شفاعة لأمتي فهي نائلة إن شاء الله».

وإن كان هذا شأن سليمان مع ربه، فإن الله تبارك وتعالى أكرم نبينا محمد ﷺ بأن بعث له جبريل عليه السلام يخيره بين أن يكون نبياً ملكاً، وهو هو محمد، يعني أن إعطائه الملك لا يُنقص شيئاً مما له عند الله، وأن دعوته مدخرة، وبين أن يكون نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، وقال: «يا جبريل، الدنيا دارُ من لا دار له، ومالُ من لا مال له، ويجمع لها من لا عقل له، أجوع يوماً فأصبر، وأشبع يوماً فأشكر».

ومن خلقه العظيم ﷺ أنه إحترم مقام أخيه سليمان، حينما عرض له الشيطان على صورة صبي وهو يصلي، فأمسك به، وقال: «كنت أريد أن أربطه في سارية المسجد حتى يلعب به الصبية، لولا أني ذكرت دعوة أخي سليمان».

كما روي عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه كان جالساً مع أصحابه يوماً، فطلب شراباً، فأُتي له بإنائين، أحدهما فيه ماء والآخر فيه عسل، فلما رفع أحدهما إلى فيه بكى بكاءً شديداً حتى أبكى من حوله، وبعد أن هدأ سأله أصحابه، وقالوا له: ما الذي هيجك على البكاء حتى أبكيتنا وسكت فلم نسكت، قال: كنت يوماً جالساً مع رسول الله ﷺ فرأيته يشيح بيده، ويقول: إليك عني، ولم أر شيئاً، فسألته عن ذلك، فقال: أتتني الدنيا بزخرفها ومتاعها، فأنا أطردها، فقالت: قد إنفلت مني، فلا ينفلتُ مني أحدٌ بعدك. فخشيت أن تكون الدنيا قد أتتني لتغرني. جاءه هذا الخوف وهذا الفزع والهلع، لمجرد أنه أُتي بإناء عسل مع إناء ماء.

وقد ورد أيضاً أنه رضي الله عنه خرج يوماً إلى المسجد في وقت غير وقت الصلاة، وإذا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخل عليه في المسجد، فيسأله أبو بكر، ويقول له: ما الذي أتى بك هذه الساعة إلى المسجد، فيقول عمر: والله يا أبا بكر ما أخرجني إلا الجوع، ويقول أبو بكر لعمر: وأنا والله ما أخرجني إلا الجوع، ثم يُقبل عليهما خيرُ خلق الله وأكرم الخلق على الله، وعند الله حبيبنا ومولانا وسيدنا محمد ﷺ الذي خير بين الملك والعبودية، فيسألهما ما الذي أخرجكما هذه الساعة؟ فيقولان: والله يا رسول الله ما أخرجنا إلا الجوع، فيقول ﷺ وأنا والله ما أخرجني إلا الجوع، ثم يقول لهما: إنطلقا، فإنطلقوا إلى بيت رجلٍ من الأنصار، وكان الرجل يحتطب، فلما رأتهم زوجته فرحت بهم فرحاً شديداً واستقبلتهم، وأجلستهم، وإذا بصاحب الدار يقبل فيرى النبي الكريم ﷺ وصاحبيه في داره، فلم تكد قدماه تحملانه من شدة الفرح، وقال: وافرحا، رسول الله في داري وصاحباه، ثم أتى لهم بتمر، وأمسك بالسكين، فأوصاه النبي الكريم ﷺ أن لا يذبح شاةً فيها لبن، حتى لا يؤذي أهل البيت، وذبح الرجل، وأعد الطعام، وأكل النبي وصاحباه، ثم قال: سبحان الله، خرجنا من بيوتنا جياعاً، فأطعمنا الله لحماً وبصراً -أي تمراً- وماءً والله لتسئلن يومئذ عن النعيم.

ولقد جاءت هذه الرواية في تفسير سورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾، أوردها الإمام القرطبي، وإذا كان لنا أن نختم هذا التعليق فلنختمه بالحديث النبوي الشريف: «يقول ابن آدم، مالي مالي، وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

ويقول أحد الحكماء:- الشركاء في المال ثلاثة، العدو ويتمنى الفقر لصاحب المال، والورثة ويتمنون الموت لصاحب المال حتى يرثوا، وصاحب المال الذي يجمعه فليحرص على أن يكون أحسن الشركاء، بأن يوظف ماله في وجوه الخير والبر، وهذا ليس من باب قبح الدنيا أو بغضها ولكن ما أحلاها،

وما أجملها، وما أحسنها، إذا كانت في أيدينا حتى نسخرها في طاعة الله، ولا تكون في قلوبنا حتى تسخرنا هي.

وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل يقول للدنيا: «يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه»، فاللهم إن رزقتنا الدنيا فاجعلها في أيدينا حتى تكون مطيتنا إلى الآخرة، ولا تجعلها في قلوبنا، فنحملها يوم القيامة.

الفصل الرابع والعشرون

قصة يوسف عليه السلام

وإذا كان لنا أن نختم هذا البحث المتواضع من سير بعض الأنبياء والرسل فإننا نختمه ببعض الإشارات اللطيفة من قصة سيدنا يوسف عليه السلام.

ولعل سائلاً يقول: ما هي الحكمة من إختيارنا الحديث عن هذا النبي الكريم؟ فإننا نجيب بأمرين:

الأمر الأول: أنه كما تحدث عنه مولانا رسول الله ﷺ فقال: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»، فهو نبي بن نبي بن نبي، وجده أبو الأنبياء، وخليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام،

الأمر الثاني: أن الله تبارك وتعالى أكرمه بشطر الحسن، حيث رآه النبي الكريم ﷺ ليلة أسري به والتقى به في السماء الثالثة، ونعته بهذه الصفة. «فإذا أنا بيوسف وقد أُعطي شطر الحسن».

وقد اصطفاه الله تبارك وتعالى وعلمه تأويل الأحاديث، أي تفسير الرؤى، ومع ذلك كان جماله سبباً في ما وقع فيه على ما يأتي بيانه.

وأيضاً كان حب أبيه له، وغيرة أخوته منه سبباً آخر لما وقع فيه من محن، فابتلي بجماله، حتى لا يُفتن أحدٌ بالجمال أو غيره.

وابتلي من أخوته وبأخوته، حتى لا يركن أحدٌ إلى ما يُسمى بالعزوة.

ونبدأ قصة نبي الله يوسف عليه السلام من نهايتها، وقبل أن نبدأ هذه البداية.

إن قصة يوسف عليه السلام تميزت بأنها ذكرت بكاملها في سورة واحدة، وكان اسم هذه السورة هو اسم يوسف عليه السلام، فسميت سورة يوسف، وقد أعجبني أحد المعلقين الكرماء على هذه السورة، بل وعلى ذكر

يوسف باسمه في القرآن الكريم، حيث ربط بين سيدنا يوسف وشهر رمضان، فقال: إن مثل شهر رمضان في أشهر السنة كمثل يوسف في أبناء يعقوب، فإن يعقوب عليه السلام كان له اثني عشر ولداً، ولم يصطفِ الله منهم إلا يوسف نبياً، كذا شهرُ رمضان في أشهر السنة، فهي أثني عشر شهراً، ولم يصطفِ الله منها إلا شهر رمضان، حيث أنزل فيه القرآن وخصه بالصيام والقيام.

أيضاً فإن الله عز وجل لم يذكر إسماً في القرآن الكريم من أبناء يعقوب إلا يوسف، وكذلك لم يذكر إسم شهر من الشهور، حتى الأشهر الحرم في القرآن إلا شهر رمضان، حيث يقول الله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[1].

وأيضاً إذا كان أبناء يعقوب طلبوا من يوسف أخيهم أن يعفو عنهم، قالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿تا الله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين۞ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[2]، كذلك فإن الله عز وجل خص شهر رمضان بالأجر العظيم والثواب الجزيل كما روي في السنة المطهرة: «أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار».

وبعد فهيا بنا إلى بعض الإشارات اللطيفة:

إن الله عز وجل يقول في كتابه الكريم بعد أن بدأ السورة الكريمة بتنزيه القرآن وتقديسه، وأنه كتاب مبين، وأنه أنزل قرآنا عربياً لعلكم تعقلون، قال سبحانه: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾[3]. فالقصص القرآني أحسن القصص لأمور:

أولها: أن الذي قصها وذكرها هو الله عز وجل، وليس بعد كلام الله كلام.

---

(١) سورة البقرة الآية رقم: ١٨٥.

(٢) سورة يوسف الآيتان ٩١، ٩٢.

(٣) سورة يوسف الآية رقم: ٢.

ثانيها: أنها ذكرت وسجلت في خير كتاب أنزل على خير نبي ﷺ لخير أمة: ﴿إنه لقرآن كريم۝ في كتاب مكنون۝ لا يمسه إلا المطهرون۝ تنزيل من رب العالمين﴾[1] ﴿فمن شاء ذكره۝ في صحف مكرمة۝ مرفوعة مطهرة۝ بأيدي سفرة۝ كرام بررة﴾[2].

ثالثها: أن القصص القرآني منزه عن التأليف والتوليف والصنعة والإفتعالات والتصوير المفتعل، وهو ما يُسمى بالإخراج فينا نحن البشر، وأن أبطاله غير متقمصين أو منفتعلين، وإنما هم حقيقيون، وأن الغاية من هذه القصص هي علمنا بما حدث لمن قبلنا حتى نؤهل للشهادة يوم القيامة تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[3].

وعلمنا بأن الباطل مهما علا وارتفع، فإنه لا محالة زائلٌ، كالدخان مهما ارتفع، وملأت رائحته الجو، وأصاب الناس والجو بالإختناق فإنه سريعاً ما ينطفئ ويندثر، وأن الحق مهما كان خفيفاً وهيناً فإنه لابد وأن يرتفع، وكما قال بعض الحكماء: دولة الظلم ساعة ودولة الحق والعدل إلى قيام الساعة، وقال آخر: الحق أبلج، والباطل لجلج.

لذلك فإن القصص القرآني كلما قرأته وكلما سمعته، فكأنك تقرأه وتسمعه لأول مرة، لأنه حق، ولأنه أحسن القصص، أما القصص المكتوبة والمفتعلة فإنك تسأمها للمرة الثانية أو الثالثة.

ونبدأ قصة يوسف من نهايتها: قوله تعالى: ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾[4].

---

(١) سورة الواقعة الآيات: ٧٧- ٨٠.

(٢) سورة عبس الآيات: ١٢ - ١٦.

(٣) سورة البقرة الآية رقم: ١٤٣.

(٤) سورة يوسف الآية رقم: ٤.

المقدر هو الله سبحانه وتعالى وهو علام الغيوب، تقديره بحكمه فيوسف عليه السلام وهو صبي يرى رؤيا في المنام، يرى أن الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر سجدوا له، فيعجب لما رأى، ويسأل أباه عليه السلام، ويقص عليه ما رأى.

وكأن الله سبحانه وتعالى يعده لما هو مقبلٌ عليه، وصائر إليه، حتى يكون على إستعداد ويكون متهيئاً، ولا يُفاجأ، فيفسر له أبوه ما رأى، وقبل التفسير ينصحه كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾[١]، ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾[٢]، أي يصطفيك، ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾[٣]، يعني تفسير الرؤى، ﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم﴾[٤].

وتبدأ القصة:

يقول الله تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾[٥]، وقرأ المكي «آية»، بالتوحيد، ومجمل ما حدث مع يوسف وإخوته أنهم تعجبوا من إيثار يعقوب ليوسف وأخيه بنيامين، الذي هو أخٌ شقيق له.

رأى أخوة يوسف أن أباهم يؤثر يوسف وأخاه، أو يحوطهما برعاية ومعاملة خاصة، كما حكى القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين﴾[٦]، فتعجبوا

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ٥.
(٢) سورة يوسف الآية رقم: ٦.
(٣) سورة يوسف الآية رقم: ٦.
(٤) سورة يوسف الآية رقم: ٦.
(٥) سورة يوسف الآية رقم: ٧.
(٦) سورة يوسف الآية رقم: ٨.

وقالوا: كيف لأبينا يؤثر يوسف وأخاه علينا ونحن عصبة، أي أكثر﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾.

ولعل سائلاً يسأل ويقول: كيف ليعقوب أن يفعل ذلك ويفضل يوسف وأخاه على أخوتهما، وهو نبي، وحاشاه أن يظلم، ولا يحق له أن يؤثر يوسف، وإن كان قد علم أنه سيكون له شأن، فالعدل بين الأولاد حق، بغض النظر عن صفاتهم؟

فالجواب هو: أن يعقوب عليه السلام لم يفعل ذلك لشيء، إنما كان يوسف وأخوه أقرب إليه من أبنائه لإن أمهما كانت قد توفيت، وكانا محرومين من عطف الأمومة، وما أدراك ما هو، لذلك كان يعقوب عليه السلام يحاول أن يعوضهما حنان أمهما التي فقداها وهما صغيران.

لكنه عليه السلام فاته شئ، وهذا لتنفيذ القدر، وهو أنه ما كان يصح أو يجوز أن يُظهر هذا الحب، وهذا الإيثار، ويشعر الأخوة بذلك، حتى لا يجدوا في أنفسهم ما وجدوا، وقولهم: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾، لم يكن إتهاماً لأبيهم بالضلال المعروف، ولإن الضلال في اللغة له ثلاثة معاني:

أولها: الحيرة، حيث يقول تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾[1]، أي حائراً، تبحث عن العقيدة الصحيحة، لأنه عليه السلام شعر بفطرته الصافية، أن ما عليه قومه من عبادة الأصنام والأوثان باطلة، وأنه لا يُمكن لتلك الجمادات، أن تكون هي المعبودة، فهداه الله وهدى به إلى الحق.

ثانيها: التغيب والهلاك والموت، يقول تعالى: ﴿وقالوا إئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾[2] أي إذا غيبنا وتاهت معالمنا

ثالثها: هو الحب الشديد، فقول أبناء يعقوب: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾، أي لفي حب بين ليوسف وأخيه كذلك لما أحس يعقوب وشم ريح

---

(١) سورة الضحى الآية رقم: ٧.

(٢) سورة السجدة الآية رقم: ١٠.

القميص، وقال لهم: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾[1]، أي تكذبون، قالوا: ﴿تا الله إنك لفي ضلالك القديم﴾[2]، أي لفي حبك البين القديم، هذا إلى جانب المعنى المفهوم للضلال، وهو الخروج عن الحق -المعنى الشرعي- وسُمي ضلالاً لأن صاحبه ترك الحق وانتحى إلى طريق الحيرة، وغيب عقله، واستحب الباطل على الحق، فقد جمعت فيه المعاني الثلاث نعوذ بالله من ذلك، ولذلك لما اختار واستحب الضلال والعمى على الهدى جازاه الله، بأن ختم على قلبه فلا يخرج الباطل منه، ولا يصل الحق إليه، وكذا ختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وأخذ أبناء يعقوب يدبرون ويكيدون ليوسف، لكن لابد وأن ننصفهم ونعطيهم حقهم، فهم لم يكرهوا يوسف، فهو أخوهم ولكنهم كرهوا موقف أبيهم، وكل ما يبغون ويرجون ويتمنون هو أن يبعدوا يوسف من طريقهم إلى قلب أبيهم، ويخلوا بينهم وبين أبيهم، فكما هو معلوم أن الإنسان الذي لم يتعود إرتكاب الجرائم، والذي قلبه صافي من الحقد إذا فكر في جريمة ينزل بها إلى أسفل، كيف؟

يقول مثلاً، إنا إذا لقيت فلاناً لابد وأن أقتله، ثم يقول: لا أقتله، ولكني اضربه، ثم يقول: لا أضربه ويكفي أن أشتمه أو أعنفه، ثم يقول: لا أشتمه، ولا أعنفه ولكن أفوض أمري إلى الله.

هكذا يكون الأصفياء، أما غيرهم فإنهم يفكرون في المعصية ويصعدونها من العتاب إلى الشتم إلى الضرب إلى القتل.

هكذا نرى أخوة يوسف، فكروا أولاً في أن يقتلوه، ثم انتقلوا إلى أن يطرحوه أرضاً في صحراء، ثم وصلوا إلى أن يلقوه في الجب، وقالوا: ﴿يلتقطه

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ٩٤.

(٢) سورة يوسف الآية رقم: ٩٥.

بعض السيارة﴾[1]، فهم يحفظونه من الوحوش والهوام والموت ويأملون في خلاصه إذا لقيه بعض السيارة، نخلص مما قلناه بأمرين:

الأول: أنه يجب على الآباء ألا يؤثروا بعض الأبناء على بعض، وإن كانوا لا محالة فاعلين، فليخفوا هذا الحب، وهذا الإيثار، حتى لا يكون بين الأخوة عداوة أو بغضاء.

الثاني: أن المؤمن والأنسان الذي معدنه طيب فإنه لا يلجأ إلى الجريمة، وإن فكر فيها فإنه يدنو بها حتى تكاد تموت.

وأخذوا يحتالون على تنفيذ ما دبروا، وخططوا، فكلموا يوسف قائلين: يا يوسف ألا تحب أن تخرج إلى التنزه واللعب، قال: بلى، وكيف لا يحب ذلك وهو صبي، قالوا: كلم أباك في ذلك حتى يأذن لك أن تخرج معنا، وكأنهم يعلمون أو يظنون أن أباهم لا يوافق على ذلك، أو كأن ما يفكرون فيه يجعلهم في رهبة وفي شك من ذلك.

فكلم يوسف أباه فلم يوافق في أول الأمر، ثم أخذ أبناؤه يلحون عليه في الأمر، فقال لهم: إني أخاف أن تخرجوا به، فيأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، قالوا له: لئن حدث ذلك وأكله الذئب منا ونحن عصبة، أي جماعة، إنا إذاً لخاسرون.

ولقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال ليعقوب: أتدري لم حرمتك من يوسف؟ قال: لم؟ قال الله عز وجل: لأنك قلت وأخاف أن يأكله الذئب، ولم تكل أمره إلينا، ثم قال الله عز وجل: يا يعقوب، أتدري لم رددت إليك أبناءك؟ قال: لم؟ قال: لأنك قلت: فصبر جميلٌ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً.

وذهب يوسف مع أخوته بعد موافقة أبيه ونفذوا ما دبروا، لكن الآية الكريمة تقول: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾[2]،

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ١٠.

(٢) سورة يوسف الآية رقم: ١٥.

وحذف جواب لما لأن حرف لما في هذه الآية إنما هو حرف شرط مثل قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً﴾، هنا وفي هذه الآية ﴿فلما ذهبوا به﴾، حذف الجواب، والجواب مقدر، والله سبحانه وتعالى لم يذكر الجواب في الآية لأنه كان سراً، بينه سبحانه وتعالى وبين يوسف، حتى وأنه عز وجل أخفاه عنا في الآية لنقدره.

والتقدير: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ طمأنا قلبه، وأذهبنا روعه، وأوحينا إليه أن لا تخف ولا تحزن فنحن معك.

ولذا فإن من المستحب أن يقف القارئ على ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾، لإستحضار الجواب، وعطف ما عليه بعده، ﴿وأوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾، رأيان:

الأول: وهو الأظهر أنهم يكون إتماماً للجواب.

الثاني: أن يكون كلاماً مستأنفاً وليس من الجواب.

ووضع يوسف في الجب، وتركه أخوته في ظلمات الجب، لكنه ليس في ظلماتٍ، وليس في جب، بل هو في روضة يانعة، وفي ظلال وارفة، وفي جنة الله في أرضه، وهكذا يكون المؤمن، لا يخاف روعاً، ولا يحزن على ثواب، لأن شعاره ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾، فالمؤمن لا يكون في قلبه غير الله، وكيف يخاف روعاً وكيف يضيق نفساً وكيف يحزن على ضيقه، والله في قلبه؟ والله نور السماوات والأرض، فهو خالقه ورازقه، ومتولي أمره، ومنور السماوات والأرض، فكيف لا ينور قلبه، ولذلك قالوا: لو علم المظلوم حقيقة أمره مع ربه لشكر الظالم على ظلمه، وهكذا نفذ أخوة يوسف فكرهم وكفرهم، وباعوا أخاهم بدراهم معدودة، وأتوا بشاة، وذبحوها، ولطخوا قميص

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ١٥.

يوسف بدمائها، وجاؤوا إلى أبيهم باكين، قائلين: ﴿يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾[1].

فلنتأمل هذه العبارة: ﴿ولو كنا﴾، وإن كنا صادقين، نطقوا بهذه العبارة، وأوقعوا أنفسهم فيما لا يدرون وكأنهم يقولون: ﴿ونحن كاذبون﴾، فقال لهم أبوهم، متهكماً بهم، وحينما رأى قميص يوسف، ما أحلمك أيها الذئب، يا لك من ذئب حليم، أكلت يوسف دون أن تمزق قميصه، وكما يقولون: إن كل خاطئ أو مذنب يترك شيئاً أو ينسى شيئاً ليكون دليلاً على ما فعل.

ثم قال يعقوب: ﴿فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[2]، أجل ﴿الله المستعان﴾، لا أحد يدافع عن المظلوم إلا الله، فلقد كان يوسف في الجب، فبعث الله إليه جبريل، وأمره أن يؤنس وحشته، ملك مقرب وأمين وحي السماء، أليست هذه قمة السعادة، أن يأنس يوسف بجبريل عليهما السلام.

ولما بيع يوسف للسيارة الذين أخذوه من أخوته، ذهبوا به إلى مصر، وباعوه للعزيز، والعزيز هو رجل يسمى قطفير، وكان أمين ملك مصر، وخازناً للدولة، ولم ينجب أولاداً، وكان زواجه بزليخة غير متكافئ، فقد تزوجها لجمالها، وهي وافقت على زواجه، أو وافق ولي أمرها على ذلك، لمكانة العزيز المرموقة.

وهذا درس إجتماعي، لأولياء الأمور، بأن لا ينبهروا، ويؤخذوا بالأضواء اللامعة، ويفرحوا بالمركز والمال، وقد نسوا، أو تناسوا أن الزواج لكي يدوم، ويكون موفقاً خالياً من الشوائب والعواصف والخيانات، محفوظاً من التصدع، لابد فيه من التكافؤ بين الزوجين في كل شيء في السن والحالة الوسطية، بل والتفكير أيضاً، لأن الزواج مشاركة، وشركة بين الزوجين في كل شيء، يشارك

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ١٧.

(٢) سورة يوسف الآية رقم: ١٨.

كل منهما الاخر في الحياة حلوها ومرها، والزواج غير المتكافئ، من أجل مال أو مركز، زواج كتب عليه بالدمار، حتى وإن إستمر، يكفي أن كلٌ من الزوجين يؤمن تماماً ويعلم أن المصلحة هي المسيطرة والمرفرفة بجناحها الأسود المظلم القاتم، فإذا سنحت الفرصة لأحدهما أن يخون الآخر سارع إليها وظهر على حقيقته، وإذا ضاعت هذه المصلحة لأمر، فإن كلاً من الزوجين يلعن الآخر، وينهدم البيت على رأسيهما، وتكون الطامة الكبرى، إذا كان بينهما أولادٌ، فإن تلك جناية أخرى، أولاداً مشردون قد فرضوا على المجتمع، وشقي بهم، وذلك لإختراق الأبواب الباطلة.

قال العزيز لأمرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾[1].

ونعم ما قاله العزيز، فإن الله عز وجل قدر أن يكون يوسف عليه السلام في بيت العزيز، لكي ينعم بالحياة المترفة، حتى تهدأ نفسه، مما حدث له من إخوته، وحتى تكون هذه الفترة فترة راحة وتمهيد وإعداد للمرحلة الأخرى التي سوف يقطعها يوسف، وعاش يوسف في بيت العزيز حتى يُمكّن له في الأرض، وحتى يهيئ للرسالة القديرة والعمل العظيم الذي يكلف ويشرف به ويكون سبباً في العلاج الإقتصادي والذي هو عصب الحياة.

وعود إلى مقالة العزيز وقوله لإمرأته: ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، فحقق الله له ما قال، فكان نعم المعين بعد الله للعزيز ولمصر ولأخوته وإسرته.

وهذا يناقض تماماً موقف فرعون لعنه الله من نبي الله موسى عليه السلام، فحينما وجد رجال فرعون موسى في التابوب، ولما رآه هو وزوجه آسية رضي الله عنها، قالت لزوجها: ﴿قرة عين لي ولك﴾[2]، وقالت لجنود فرعون: ﴿لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، فأجابها فرعون، وكأنه يحكم على نفسه بالهلاك، قال: «قرة عين لك أنت وعسى أن ينفعك أنت»، وقد كان، منّ

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ٢١.

(٢) سورة القصص الآية رقم: ٩.

الله على آسية، فكانت من المؤمنين القانتين، وكانت من خير نساء أهل الجنة لإنها مع كونها إمراة ومع ضعفها، ومع أنها تحت عصمة رجل كافر طاغية، آمنت وحسن إيمانها، ولم تعبأ ببطش فرعون.

وكان موسى عليه السلام سبباً فيما كان يحذر منه فرعون، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾[1]، والقرآن يتهكم ويوعد وينذر فرعون وجنوده، فهم لم يلتقطوه لذلك، بل هم وقعوا فيما يخافون، فاللام هنا هي لام العاقبة والمفاجئة، كما لو رسب طالب وأراد أبوه أن يسخر منه يقول: إن ولدي إجتهد ليخيب، وعودٌ إلى نبي الله يوسف عليه السلام، وقد حسن قول العزيز، وقال الله عز وجل: ﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض، ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2].

نعم صدق الله، نعم إنه غالبٌ على أمره، مهما دبر المدبرون ومكر الماكرون، وكاد الكائدون، فربما ضروك لينفعوك، فلولا أن أخوة يوسف فكرو فيما فكروا ومكروا ودبروا، كيف ليوسف أن يصل إلى ما كتبه الله له وإلى م قدر له.

وهكذا نرى أن المال وحده لا يكفي، ولا يحقق سعادة، فهاهو العزيز مع ما فيه من نعماء وترف وحياة سؤدد، لكن كل هذا لم يسعده ولم يكفه، بل كان يتمنى أن يكون له ولد.

وكأنه جعل زليخة كجزء من متاع البيت، ولكن زليخة لم يمنعه سلطانها وكيانها من أن تفكر، ويتفتح قلبها ليوسف، مع أنه عبد وأقل من خادم، وهي أمرأة العزيز.

---

(١) سورة القصص الآية رقم: ٨.

(٢) سورة يوسف الآية رقم: ٢١.

ثارت عليها شهوتها وأنوثتها وقلبها ونفسها، التي لا تعرف جاهاً ولا سلطاناً ولا قوةً ولا ضعفاً، خصوصاً وأن يوسف بشبابه وجماله وما وهبه الله من حسن خليقة وخلق، كان في البيت أمام سيدته في قصر واحد، ويغلق عليهما الأبواب فالظروف كلها مهيئة الشباب والجمال والخلوة والشهوة.

ولذلك نهيب بإخوتنا الرجال، ونحذرهم من أن يتركوا خدمهم، ومن يحمونهم في بيوتهم مع أزواجهم حتى لا يكون مثل ما كان للعزيز وزليخة فكانت الحرب وكان الإشتعال، وكان ما كان فكانت المراودة.

وهاهي إمرأة العزيز تبدأ المراودة عن نفسها ليوسف، وتحاول أن تتغزل فيه كما هو شأن المرأة لأنها عاطفية بطبعها، فغلقت الأبواب، ويقال أنها كانت سبعة أبواب، غلقتها ثم دعته إلى نفسها، وقالت: هيت لك، أي أقبل وتعالى.

وفي الخبر: كما ذكر الإمام القرطبي في تفسيره، أنها قالت: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك!

قال: في الرحم صورني ربي.

قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك!

قال: هو أول شئ يبلى مني في قبري.

قالت: يا يوسف، ما أحسن عينك!

قال: بهما أنظر إلى ربي (أي في الآخرة).

قالت: يا يوسف! إرفع بصرك فانظر في وجهي.

قال: إني أخاف العمى في آخرتي.

قالت: يا يوسف أدنو منك وتتباعد مني!

قال: أريد بذلك القرب من ربي.

قالت: يا يوسف القيطون -المخدع- فادخل معي.

قال: القيطون لا يسترني من ربي.

قالت: يا يوسف الفراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقضي حاجتي.

قال: إذا يذهب من الجنة نصيبي.

إلى غير ذلك من كلامها.

وهكذا نرى الصراع المحتدم بين شهوة الدنيا والإيمان والحصانة الكاملة التي أحاط الله بها عبده ونبيه يوسف عليه السلام، أليس هو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم. بلى، يقول: ﴿معاذ الله﴾[1]، أي أستعيذ وأتحصن به، وألوذ بجنابه ورحابه، ثم يذكر صنيع العزيز معه ويقدر للأمانة قدرها، فيقول: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾[2]، أكرمني وأمنني على بيته، فكيف أخون الأمانة وكيف أرد الجميل بالقبيح، ﴿إنه﴾، أي الشأن والحال ﴿لا يفلح الظالمون﴾[3].

فلما آيست إمرأة العزيز من مراودتها ليوسف وأحست أنه طعنها في كبريائها، ولم يقض حاجتها، همت به للإنتقام، وتحول الأمر من مراودة وملاطفة وعاطفة وثورة شهوة، إلى كراهية وإنتقام، فهمت به لتضربه وهي نتيجة حتمية لمثل هذه المرأة.

وهم بها هو الآخر ينتقم منها لأنها كانت سبيلاً إلى معصية الله، وباب فتنة ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾[4]، فعصمه الله من أن يضربها أو يفعل بها شراً، فربما كان هذا الفعل دليلاً لها وحجة على كذبها وبهتانها وإدعائها الكاذب أما زوجها على يوسف.

فتقول مثلاً: إنه راودني فلما إمتنعت عنه ضربني، وهكذا يقول الله عز وجل: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾، لأن الهم في القرآن الكريم إنما ذكر بمعنى الإنتقام، يقول تعالى عن الكفار والمنافقين:

---

(١) سورة يوسف الآية رقم: ٢٣.

(٢) سورة يوسف الآية رقم: ٢٣.

(٣) سورة يوسف الآية رقم: ٢٣.

(٤) سورة يوسف الآية رقم: ٢٤.

﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾.

والقرآن الكريم يذكر الهم من جانب زليخة ويوسف بعد ذكر المراودة منها والإمتناع منه، ويدخل العزيز أو يطرق الباب وزليخة ويوسف في حالة إستباق كما حكى القرآن الكريم.

فهاهو يركض من أمامها وهاهي تشد قميصه من الدبر، فإذا بهما يجدان أنفسهما أما العزيز، وهاهي زليخة تقيم إدعائها الكاذب ولا يكفيها ما فعلت، فتقول: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم﴾[1]، ولم تقل إلا أن يقتل لإنها لا تزال تكن حب يوسف في قلبها حيث ملأ كيانها ووجدانها، فهي لا تريد إلا أن تذله وتكسر أنفه وتتلذذ بآلامه.

فلم يجد يوسف بداً من أن يفصح عن الحقيقة، ويقول: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، ويشهد عليها شاهدٌ حكيمٌ من أهلها كان مع العزيز ولعله كان يعمل تحت إمرته، فيقول كلاماً حكيماً واعياً حاسماً: ﴿إن كان قميصه قُدَّ من قُبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾. وهذا كلام له روعته وجلاله وجماله أيضاً.

لأن المراودة لو كانت من جانب يوسف لكانت زليخة في مقام الدفاع عن نفسها فتمزق القميص من القبل، لكنها إن كانت من جانبها، وهي كذلك، فإنه يفر منها وهي تحاول أن تشده من الدبر.

فلما رأى العزيز قميص يوسف قُدَّمن دبر عَلِمَ واستوثق من براءة يوسف لكنه ما زاد على أن قال لزليخة: ﴿إنه﴾ أي المكر والخداع والكذب والإحتيال، ﴿من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾.

---

(١) سورة يوسف

وينظر إلى يوسف ويقول: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾، أي اكتم هذا الأمر، فإنه يخاف من أن يتفشى الأمر فيفسد على العزيز كيانه وهيبته ومهابته، وينظر إلى زليخة مرة ثانية، ويقول: ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾، لكن هل انتهى الأمر عند ذلك، بالطبع لا، لأن النار لابد أن يكون لها دخان وأثر.

تفشى الأمر في البيوت من طريق أو أخر، ﴿وقالت نسوة في المدينة إمرأة العزيز تراود فتاها﴾، أي خادمها، ﴿عن نفسه﴾ وهي من هي، وهو من هو، ﴿قد شغفها حباً﴾، أي ملأ حبه كيانها وسيطر عليها حتى جعلها تكسر كبريائها وتنزل إليه، ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾، أي حب بين أفقدها جلالها.

فلما سمعت زليخة بقولهن أرسلت إليهن وأعدت لهن طعاماً، وأتت كل واحدةٍ منهن سكيناً، فهي تريد أن تدافع عن نفسها أمامهن بالعمل لا بالقول، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن.

فحينما رأينه أكبرنه وأجللنه، وعلمن أنها مقهرة على ما فعلت، وجدن أنفسهن أما شخصية لو لم يكنّ على علم بها لظنن بل أيقن أنه شخص أو شخصية كبرى، ذات شأن كبير، فلم يملكن إلا أن قطعن أيديهن، وقلن: ﴿حاش لله﴾، أي معاذ الله من أن يكون هذا غلاماً أو فتىً عادياً، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريم، عند ذلك قالت زليخة: بعد أن رأت ما رأت من آخواتها: ﴿فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾، ولم تيأس بعد ذلك ولم تكشف عن ما في نفسها، لأن ثورة الشهوة كما قلنا أقوى من الجبل، فتواصل تهديدها ووعيدها، فتقول: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوونن من الصاغرين﴾، لكن يوسف يرى السجن المظلم، قصراً عظيماً مضيئاً، فيه النعيم والسعادة، مادام هذا السجن يحصنه من معصية الله، فيقول: ﴿ربِ السجن أحبَ إليّ مما يدعونني إليه والإ تصرف عني كيدهن أصبوا إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

فهو يعترف أن العصمة والوقاية من الله فتأتي الإستجابة الفورية، ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع﴾، للدعاء، ﴿العليم﴾، بالنية، فإن الدعاء لا يُستجاب إلا إذا كان من القلب قبل اللسان، وهكذا، يأتي الإمتحان الثالث ليوسف ويدخل السجن، وكما يقول الحكماء: «كم في السجن مظلومٌ ما يعلم به الله»، أي ما يعلم به إلا هو، وهو الله عز وجل.

ويمكث يوسف في السجن ما شاء الله أن يمكث، ثم يحتاج إليه الملك في تفسير رؤيا كان قد رآها.

حيث رأى في منامه سبع بقرات سمان، أقوياء، يأكلهن سبعٌ عجافٌ ضعافٌ، وسبع سنبلات خضر ومثلها يابسات، فلما قص تلك الرؤيا على المأولين لم يستطيعوا تأويلها، بل قالوا له: تلك ﴿أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾، فإننا نفسر الرؤى، فيقول الذي نجا من القتل، وهو أحد اللذين أول يوسف لهما رؤياهما، يقول ويعلن أمام العزيز عن يوسف، ويؤتى به بعد أن فسر الرؤيا وبيّن أنهم يرعون سبع سنين، في دأب ونشاط، فيأمرهم أن يتركوا ما حصدوه في السنابل، ولا يأخذوا إلا ما يحتاجون من الطعام، فإنه تمر عليهم سبع سنين أخرى شداد، ليس فيها زرع، هذه السنون ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾، أي ما أدخرتم ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾، أي تدخرون، ثم يأتى من بعد ذلك عام هو أشد من سوابقه، فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.

تشتد المجاعة، فأمر الملك أن يؤتى به، فأراد يوسف أن يستوثق لنفسه، مما رمى به ظلماً وبهتاناً، فطلب من الملك أن يأتيٌ بالنسوة، اللاتي قطعن أيديهن فسألهن الملك: ﴿ما خطبكن﴾، ما شأنكن وما قولكن، ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾، ومن إبتدائية، أي ما علمنا وما رأينا منه شيئاً من بداية ما يقال عنه من سوء، فهو لم يحاول أن ينظر إلى إحدانا، عند ذلك تنطق إمرأة العزيز: ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين

وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾.

وهكذا تتأكد براءة يوسف عليه السلام بخمس شهادات: شهادتان من الله عز وجل، وهما أوثقها.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾، ومن آتاه الله الحكم والعلم وجعله من المحسنين لا يُمكن أن يقع فيما نسب إليه كذباً وإفتراءً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾.

الثالثة: شهادة الشاهد الذي ألهمه الله بالحكمة والذي قال: ﴿وإن كان قميصه قُد من قبل﴾، إلى أخر الآية.

الرابعة: شهادة النسوة اللاتي إعترفن أمام الملك ببراءته، ﴿وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾.

الخامسة: شهادة إمرأة العزيز والتي هي أصل القضية، حيث أعلنت وإعترفت ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾.

هذا إضافة إلى ما ذكره أمام النسوة، حيث قالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾، فقولها: ﴿إستعصم﴾ بهذا التعبير الفعل السداسي المزيد بالهمزة والسين والتاء يدل على صدق البراءة وعلى أنه عليه السلام برئ من هذا الأمر ومن هذا الشر.

وبعد أن إستوثق الملك من براءة يوسف طلب منه أن يكون عوناً له على الحكم فقال يوسف عليه السلام: ﴿إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم﴾، وهذا الطلب من يوسف عليه السلام لم يكن من باب التشريف، ولكنه رأى أن البلاد سوف تقع في شرٍ خطير وأزمة إقتصادية، وأنه لا يصلح للتصدي لهذه الأزمة إلا هو، حيث قال: ﴿إني حفيظ﴾، أي حافظ للأمانة، علمٌ وصبرٌ

يحسن الإدارة في هذه الظروف المرتقبة، وهكذا يجب على المسلم إذا رأى أنه في موقف لا يصلح فيه إلا هو أن يقدم نفسه وإن منع.

ومكن الله ليوسف في الأرض، ومكنه على البلاد، فكان مسئولاً عن خزائن مصر، وجاء إخوته إليه بعد أن إعترفوا بخطأهم، وقال لهم يوسف: ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

فهو يعترف بأن ما أصبح فيه من النعمة إنما هو إمتنان من الله عز وجل ويبين الحيثية لهذه النعمة ويرجع أمرها إلى تقوى الله والصبر على قضائه.

قال إخوته: ﴿تالله لقد آثرك الله عينا وإن كنا لخاطئين﴾، قال في سماحة وعفو ولين جانب: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾، أي لا تخافوا، ثم دعا لهم: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾.

وجمع الله شتات الأسرة وشملها وإلتقى يوسف بأبيه وخالته التي هي في مكانة أمه وأجلسهما على عرشه، وسجد الجميع له سجود إكبار وإعتذار لا سجود عبادة، وهاهو يوسف عليه السلام: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ إلى قوله: ﴿إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾.

أي لطف بي في قضائه، وقضى عليّ ما قضاه عن علم وحكمة، ثم توجه إلى الله عز وجل قائلاً: ﴿ربِ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض﴾، أي خالقها وموجدها من عدم على غير مثال، ﴿أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾، فطلب الموت، فإذا كان تمني الموت منهياً عنه، لم يكن تمنياً وإنما دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام وسأله حسن الخاتمة وإلحاقه بالصالحين، كما من عليه في الدنيا بتلك النعم العظيمة والآخرة خير وأبقى، وقيل أنه عليه السلام إلتقى بزليخة

فتزوجها، ودخل بها عذراء، لأنه من ترك شيئاً في الحرام، ناله في الحلال والله أعلم بما كان من هذا الأمر.

وبعد فقد وصلنا بك أخي القارئ إلى نهاية هذه الرحلة المباركة وتنسمنا معاً عبق الأنبياء والرسل، وعشنا مع نماذج طيبة مباركة، لعلها تكون نافعةً لي ولك، وأسأل الله أن يتجاوز عن التقصير، والشفاعة لنا في تقصيرنا هي المحاولة المتواضعة وحبنا لصفوة الخلق، الأنبياء والرسل.

أسأل الله أن يلحقنا بهم يوم القيامة وأن يجعل حبنا لهم في حسناتنا، وأن يرزقنا الشفاعة العظمى من نبينا وحبيبنا وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وأن يُسقينا شربة من حوضه الشريف لا نظمأ بعدها أبداً حتى ندخل الجنة، مناً من الله وفضل.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه في الأولين والآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.

اللهم إجعلنا منهم يا رب العالمين واحشرنا في زمرتهم واستجب دعائنا آمين ... آمين ... آمين.

الفهرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضوع	الصفحة







